ديودور الصقلي في مصر

القرن الأول قبل الميلاد

نقله من اليونانية

وهيب كامل

مدرس فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مقدمة

ديودور الصقلى

لم يهمل التاريخ مؤرخاً كما أهمل ديودور . . .

ألف ديودور الصقلى كتاباً فى تاريخ العالم أو التاريخ العام على حد تعبيره ، منذ فجر التاريخ إلى الحملة التى سار بها يوليوس قيصر على بلاد الغال سنة ٥٨ ق . م . وسماه «خزانة التاريخ» . وهى مصدرنا الفرد فى استقصاء أخباره وتعرف شخصيته ، والوقوف على منازعه وآماله ، فقد خلا الأدب القديم من ذكره اللهم إلا النبذة اليسيرة التى أثبتها القديس چيروم فى القرن الرابع بعد الميلاد ، إذ قال فى حوادث عام ٤٨ ق . م . « ديودور الصقلى مؤرخ يونانى أصبح مشهوراً » ولعل من الحكمة أن نقف عند هذا التاريخ باعتباره السنة التى ظهر فيها أول جزء من كتاب ديودور فاشتهر به .

مسقط رأسه مدينة آجريوم من أعمال صقلية ، وهى إحدى المدن القديمة فى داخل الجزيرة . وقد زارها هرقل كما قال ديودور [١و٤] وانتشرت فيها عبادته انتشاراً لايضارعه إلا انتشار عبادة الآلهة الاولمپية . ويتحقق لدينا قوله إن آجريوم مسقط رأسه من احتفاله بتاريخ هذه المدينة الصغيرة وحرصه على إيراد ما مر بها من حوادث بالتفصيل فى « خزانته » .

ولقد عنى التاريخ على آثار هذه المدينة ، ولكن شاءت الأقدار أن تبقى

منها على حجرين اثنين، نقش على أحدهما اسم ديودور بن آبللونيوس ، فهل كان ذلك الحجر شاهداً على قبر المؤرخ ؟

أين حصّل ديودور العلم ؟ وعلى مَن مِن الأساتذة ؟ وكيف اتجه إلى دراسة التاريخ ؟ كل هذه أسئلة لا نحير لها جواباً . ولكننا نعلم على وجه التحقيق أنه كان يجمع مادة « خزانته » فى الأولمبياد الثمانين بعد المائة أى فيما بين عام ٦٠ وعام ٥٦ ق . م . وفى هذه الاثناء زار مصر ليصف آثارها و يقف على شيء من تاريخها .

يقول ديودور إنه رأى بعينه أثناء إقامته فى مصر الشعب ثائراً يطالب بموت أحد أعضاء الوفد الرومانى فى مصر لأنه قتل هرة ، هذا بالرغم مما كان يستشعره المصريون نحو روما من خوف ، وبالرغم من أن بطليموس ملك البلاد لم يكن قد دعى بعد « صديق روما » .

ومن المعروف أن بطليموس الحادى عشر قد اعتلى عرش البلاد سنة ٨٠ ق . م . وأنه ظل زهاء عشرين عاماً مزعزع العرش لأن روما سيدة العالم حينئذ كانت مترددة فى الاعتراف به ملكا للبلاد ، ولكن فى عام ٥٩ ق . م . اعترفت به روما ملكا بفضل المجهودات السياسية التى بذلها كل من قيصر و بومبيوس ، ولكن ليس فى مصادر التاريخ الرومانى أية إشارة إلى ذلك الوفد الذى رأى ديودور أحد أعضائه يثير هذا الشغب الذى أودى بحياته أو كاد .

فإذا رجعنا إلى المؤرخ سيوتونيوس فى ترجمته لحياة قيصر ، رأيناه يقرر

أن قيصراً قبض من بطليموس هذا مبلغ ستة آلاف طالنط أو ما يعادل نصف دخل البلاد فى عام ، ليضمن له اعتراف روما بشرعية ولايته للبلاد ، فمن المعقول إذن أن يكون الأمر قد اقتضى إيفاد بعثة سياسية لدرس حالة البلاد ، تمهيداً للاعتراف بالملك . وإن ما نعرفه من شدة حاجة قيصر إلى هذه الأموال ، يحملنا على الاعتقاد أنه أوفد البعثة بعد انتخابه قنصلا فى أول يناير سنة ٥٩ ق . م . مباشرة .

وإذن فقد كان ديودور مقيما فى مصر فى عام ٥٩ ق. م . فكم أقام بها ؟ لا نستطيع أن نجزم برأى فى ذلك . ولكن الظاهر أنه غادر مصر بعد عام ٥٧ ق . م . مباشرة . فقد بدأ فى كتابة « خزانته » فى عام ٥٦ ق . م . ونحن نرجح أن يكون قد بدأ كتابه فى بلاده حيث يستطيع أن ينظر فى مراجعه وأسانيده .

أما أنه بدأ فى كتابة « خزانته » فى عام ٥٦ ق . م . فنستنتجه من قوله إن آخر من حكم مصر من الأجانب هم المقدونيون يعنى البطالسة ، وأن حكمهم دام ستاً وسبعين ومائتى عام [١ ، ٤٤] . ولما كان ديودور يقرر إن الاسكندر غزا مصر عام ٣٣١ ق . م . [١٧ ، ٤٩] إذن يكون ديودور قد بدأ كتابة « خزانته » عام ٥٦ ق. م.

أما آخر الحوادث التى عاصرها ديودور وذكرها فى « خزانته » فهى قوله [١٦ ، ٧] « إن قيصر يعنى أوجسطس نقل أهل مدينة تورومنيوم من أعمال صقلية من موطنهم وأسكن فيه جالية رومانية » فمتى حدث ذلك ؟

يقرر المؤرخ أبيان فى كتابه «الحروب الأهلية» [ك ٥ ، ١٠٩] أن هذه المدينة رفضت أن تفتح لأجسطس أبوابها حين التجأ إليها فاضطر إلى لقاء سكستوس بومبيوس فى عرض البحر ولم يكن قد اتخذ لذلك أهبته فدُحِر اجسطس وفقد اسطوله ونجا بجلده فى عام ٣٦ ق . م . فلو أن المدينة فتحت له أبوابها لاعتصم بها ، وما أقحم نفسه فى تلك الموقعة ، وما خسر هذه الخسارة الفادحة ، وهذا يفسر لنا سخطه على المدينة وعقابه لها بما ذكر ديودور . ويذكر ديوكاسيوس فى كتابه « تاريخ روما » إنه بعد هزيمة سكستوس بومبى فى عام ٣٦ ق . م . عاقب أجسطس كثيراً من مدن صقلية فلعل توروونيوم كانت من بينهما .

ولكن المؤرخ ديوكاسيوس يذكر [ك ٥٤ ، ٧] أن أجسطس نظم أمور صقلية فى سنة ٢١ ق. م. ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن تورومنيوم قد حولت إلى مستعمرة رومانية فى هذا التاريخ المتأخر. ولكننا لا نتصور أن أجسطس قد انتظر خمسة عشر عاماً حتى يعاقب هذه المدينة على ما جنت، ولا نرى أن التنظيم الذى يشير إليه ديوكاسيوس كان يستدعى تحويل المدينة إلى مستعمرة رومانية بحال .

ويقرر ديودور [٤،١] أنه قضى ثلاثين عاماً فى تأليف كتابه « خزانة التاريخ » وهذه الفترة الطويلة تشمل على الأرجح السنين التى قضاها فى رحلاته إلى البلاد التى كتب عنها ، وليس من المحتمل أن يكون قد بدأ رحلاته بمصر ، بل الأرجح أنه زار روما عاصمة العالم كله حينئذ قبل

زيارته لمصر فى سنة ٥٩ ق . م . وأنه قضى ردحاً من الزمن قبل ذلك فى القراءة وجمع المصادر ومراجعة الوثائق . هذا من ناحية ...

ومن ناحية أخرى فإن ديودور كما يتجلى فى كتاباته كان شديد الإعجاب بالأمبراطورية الرومانيـة مشيداً بمجدها ، فليس من المعقول أن يقول إن المقدونيين آخر من حكم مصر من الأجانب لو أنه عاش إلى سنة ٣٠ ق.م. حين ضُمت مصر إلى الأمبراطورية الرومانية . وإذن فقد توفى ديودور فى إحدى السنين الواقعة بين سنة ٣٦ ق . م . وسنة ٣٠ ق . م . فإذا أضفنا إلى ذلك أن ديودور لم يشر إلى الصراع بين أنطونيوس وأجسطس ، ولا إلى بوادر قيام الحرب الأهلية بينهما ، ولا إلى اكفهرار جو السياسة فى العالم الشرقى قبل قيام تلك الحرب ، لكان من الطبيعى أن نقول إن ديودور مؤرخ ولد سنة ٩٥ ق . م . وبدأ فى تأليف « خزانة التاريخ » سنة ٦٥ ق . م . ومات سنة ٣٥ ق . م . تقريباً . وقد ذكرنا أنه بدأ كتابة « الخزانة » سنة ٥٦ ق . م . والمرجح أنه نشر الأجزاء التى تمت بمجرد فراغه من كتابتها [١ ، ٤] ، وهذا يتفق مع ما قاله سويداس فى القرن العاشر بعد الميلاد من أن ديودور اشتهر كمؤرخ فى عصر أجسطس بل قبله .

* * *

إن العمل الذى تصدى له ديودور هو كما قال تدوين القصص العامة (١ ، ٤) أو الحوادث العامة [١،٥] أو هو بعبارة أخرى كتابة تاريخ العالم منذ بدء الخليقة إلى زمانه .

وإن وصف « عام » شائع مطرد فى كتاباته إلى حد يدفع القارئ إلى التفكير فى معنى الكلمة فى ذهنه ، و إلى الخروج من ذلك إلى اكتناه الغرض الذى رمى إليه المؤرخ بتأليف هذا الكتاب

ففى السنوات العشر التى تلت سنة ٧٠ ق.م. رأى ديودور أن پومپيوس قد اخضع كل شواطىء البحر المتوسط لحكم روما ، وكانت مصر وحدها مستقلة استقلالا صورياً فحسب ، فقد كان اعتلاء البطالسة عرش البلاد ، رهناً بموافقة مجلس الشيوخ فى روما . وطهر پومپيوس البحر من القراصنة الذين كانوا يعيثون فيه فساداً . وهكذا امتد النفوذ الرومانى إلى أطراف العالم المتمدين حينئذ ، أو إلى أقاصى المعمورة كما قال ديودور (١ ، ٤) ، واحتفل پومپيوس بهذا الانتصار الباهر على العالم الشرقى فى عام ٦١ ق.م. ولعل ديودور قد شاهد هذا الاحتفال العظيم ، أو هو سمع وصفه من أفواه الذين رأوه رأى العين .

فقد انتشرت الأعلام معلنة أن پومپيوس قد أخضع أربع عشرة دولة ، وأدخل خزانة الأمبراطورية عشرين ألف طالنط ، وضاعف أو كاد دخل الأمبراطورية السنوى . و بدا للمفكرين فى تلك الأيام كأن روما قد ورثت تاج الإسكندر ، وأنها تحمل لواء الرسالة التى وقف عليها حياته ، وأن عهداً جديداً من السلام والإخاء والمساواة يكاد يسود العالم تحت راية روما ، وأن النظرية الرواقية فى المواطن العالمى توشك أن تتحقق الآن وقد أصبحت الإنسانية تؤلف حضارة عامة واحدة ، وجمعية إنسانية عامة ،

وهكذا أصبح فى وسع مؤرخ مثل ديودور أن يتحدث عن الحياة « العامة » التى تحياها شعوب البحر المتوسط التى صارت الآن مرتبطة أشد الارتباط تحت راية روما .

وإذا كان قولنا « الحضارة الغربية » يفيد حضارات مختلفة أشد الاختلاف فى أيامنا هذه مثل حضارتى الولايات المتحدة وأسپانيا مثلا ، فلا ضير أن يتحدث المؤرخ فى سنة ٦٠ ق.م . عن حضارة « عامة » تضم حضارات اليونانيين والسوريين والأسپانيين والرومانيين . فقد امحت أمام جحافل روما حدود « المدينة الحرة » التى كان المواطن غريباً فى كل مكان عداها ، وأصبح تاريخ كل شعب محل اعتبار الشعوب الأخرى لأن هذا التاريخ يبين ماعسى أن يضيفه هذا الشعب من تراثه إلى هذه الحضارة العامة.

و إذن فقد كانت الدوافع لكتابة « الخزانة التاريخية » هى نفس الدوافع التى حدت بالكاتب الراحل هـ . ج. و يلز إلى إخراج كتابه « معالم التاريخ » فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، إذ اصطدم الناس بمأساة الحرب ، فلم يدركوا على وجه التحقيق هل هم يواجهون نكبة جائحة على الحضارة الإنسانية أم هم فى مستهل عهد ذهبى جديد للجمعية الإنسانية ، وتعلقوا بالأمل وصار كل مفكر يفكر كما لو كان مواطناً عالمياً .

كذلك كان المفكر الرواقى يؤمن بعد الحروب الأهلية بأن إخلاصه لفلسفته يدعوه إلى نشر مبادئه فى وحدة الجنس الإنسانى، خصوصاً بعد أن اطمأن إلى أن الخضوع لحكومة واحدة لا يعنى فناء الثقافات المتباينة فى

ثقافة الدولة المسيطرة ، الأمر الذى قامت روما شاهداً على صحته . وأصبح تأليف التاريخ الإنسانى من وجهة النظر الرواقية رسالة فى إضعاف الروح القومية الجامحة ، ووسيلة لإقامة صرح التفاهم بين الأمم بتوطيد الروابط الثقافية بينها . فلا غرو وتلك رسالة المؤرخ الرواقى ، أن يقرر ديودور أن تأليف تاريخ عام ، أمر على أعظم جانب من الأهمية للقارئ المحقق [١ ، ٣] .

* * *

ويدَّعى ديودور أنه زار كل الأماكن العظيمة الشأن فى أوربا وفى الشرق ، وأنه لاقى هذا السبيل متاعب وأهوالا جساماً ، ولكن ليس فى كتاباته ما يثبت لنا أنه زار بلاداً غير روما التى قضى فيها زمناً ما ، ووجد فيها كثيراً من المواد الأساسية لدراسته [١ ، ٤] ، ومصر ، التى انحدر فيها جنوباً حتى منف . فقد ورد فى وصف منف ذكر ضريح لإزيس « يرى إلى وقتنا هـذا فى حرم معبد هيفا بستوس » [١،٢٢] . ويذهب البعض إلى أنه زار الأقصر ، محتجين على ذلك بأن الدقة التى يمتاز بها وصفه لمعبد الرمسيوم [١،٤٧] لاتتأتى إلا لشاهد عيان . ولكن إذا كان ديودور نفسه قد عزى الوصف إلى المؤرخ هيكاتيوس ، فليس بنا من حاجة إلى افتراض أمر رحلته إلى الأقصر . أما سائر ما ورد فى رواياته عن مصر من تفاصيل فقد يكون مستقى من هيرودوت وهيكاتيوس والمؤرخ الجغرافى اجاثارخيدس الاكنيدى الذى عاش فى القرن الثانى ق.م .

ويشير ديودور أحياناً كثيرة إلى الوثائق المصرية الهيروغليفية كأنه

اعتمد عليها فى إثبات تاريخ البلاد . والواقع من الأمر أنه كان يجهل اللغة الهيروغليفيـة ، فإشاراته إلى النصوص الهيروغليفية مأخوذة من المؤرخ هيكاتيوس .

ونستطيع أن نؤكد كذلك أن ديودور لم يزر بلاد ما بين النهرين لأنه قال إن نينوى تقع على نهر الفرات . ومن حسن الظن به أن ننفى أمر ذهابه إلى أثينا ، هـذا خير له من أن نقول إنه ذهب إليها ولم يجد فى بدائع الأكروبول ما يستحق الذكر .

وقال ديودور إنه اكتسب من الرومانيين فى صقلية معرفة واسعة باللغة اللاتينية [١ ، ٤] . ولا نستطيع أن نجزم بأنه استعمل فى دراسته تاريخ روما المصادر اللاتينية أم المصادر اليونانية ، ويذهب بعض النقاد إلى أنه كان يجهل اللغة اللاتينية جهلا يكاد يكون تاماً ، ولكنا لن نأخذ برأيهم دون تحفظ . فلعل معرفته باللغة اللاتينية كانت بالقدر الذى يسمح له بالنظر فى المصادر ومراجعتها .

* * *

بدأ ديودور تاريخ العالم بعصر الأساطير ووقف عند سنة ٥٩ ق . م . وهى السنة التى تولى فيها قيصر القنصلية للمرة الأولى . وكانت « خزانة التاريخ » مؤلفة من أربعين جزءاً ، يظهر أنها كلها كانت على حجم واحد. ولم يبق منها إلا الأجزاء الخمسة الأولى ، والأجزاء العشرة من الجزء الحادى عشر إلى الجزء العشرين، ووصلت إلينا مقتطفات من الأجزاء التى ضاعت

مقتبسة فى كتب بعض الكتاب الأقدمين وعلى رأسهم يوسيبيوس Eusebius وعند المصنفين البيزنطيين .

ولقد وضع ديودور منهجاً لكتابة فى المقدمة [١ ، ٤] يتبين منه أن الكتب الستة الأولى تقف عند الحروب الطروادية ، والكتب الإحدى عشر التالية تتناول تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى موت الإسكندر أما الكتب الثلاثة والعشرين الأخيرة فتروى قصة العالم موت من الإسكندر إلى عام ٥٩ ق . م .

ولنفصل موضوعات الأجزاء المختلفة فيما يلى :

الكتاب ١ يتناول تاريخ مصر .

» ٢ » » آشور والهند و بلاد العرب .

» ٣ » » بلاد الحبشة و يبحث فى أصل الآلهة .

» ٤ » الاساطير المتصلة بآلهة اليونانيين الكبرى ، وأسطورة السبعة ضد طيبة .

» ٥ » تاريخ الجزائر الغربية وجزيرتى رودس وكريت .

وهذه الأجزاء ليست بذات خطر من الوجهة التاريخية المحضة ، لانها تدور حول موضوعات واسعة لا يسهل حصرها ، ولانها كذلك محشوة بالأساطير والخرافات.

الكتب ٦ — ١٠ ضاعت ، ولم يبق منها إلا مقطوعات تدور أقدمها حول الحروب الطرواديه وأحدثها تروى وقائع

سنة ٤٨٠ ق . م . ومن هذا التاريخ يعتمد ديودور على كتاب المؤرخ إفوروس Ephorus « فى التاريخ العام »

الكتاب ١١ يتناول تاريخ الفترة من ٤٨٠ إلى ٤٥١ ق . م .

» ١٢ » » » » ٤٥٠ » ٤١٦ ق. م.

ونلاحظ هنا أن ديودور هو الحجة الكبرى فى تاريخ الفترة الواقعة بين ٤٨٠ ق. م. و ٤٣٠ ق.م. فقد تناولها ثيوكيديديس باختصار فى ثلاثين فصلاً فقط .

الكتاب ١٣ يتناول تاريخ الفترة من ٤١٥ إلى ٤٠٥ . ق . م .

» ١٤ » » » » ٤٠٤ » ٣٨٧ ق.م.

» ١٥ » » » » ٣٨٦ » ٣٦١ ق . م .

ويلاحظ أن هذه الكتب ليست بذات خطر لأن المؤرخين ثيوكيديديس وكزينوفون قد تناولا الفترة الواقعة بين سنة ٤٣٠ ق . م و٣٦٢ ق . م بالتفصيل وكلاهما معاصر لحوادثها.

» ١٦ يتناول تاريخ الفترة من ٣٦٠ إلى ٣٣٦ ق. م.

» ١٧ » » » » ٣٣٥ » ٣٢٤ »

» ١٨ » » » » ٣٢٣ » ٣١٨ »

» ١٩ » » » » ٣١٧ » ٣١١ »

» ٢٠ » » » » » ٣١٠ » ٣٠٢ »

ويلاحظ أن هذه الكتب عظيمة الشأن من الناحية التاريخية ،

فى تاريخ الفترة الواقعة بين ٣٣٦ وسنة ٣٢٣ق . م. ديودور هو العمدة الكبرى فهو يسرد حوادثها مسلسلة سنة بعد أخرى، ويعطى بذلك صورة شامله لعهد فيليب المقدونى ، وهو فى الفترة الواقعة بين سنة ٣٣٦ وسنة ٣٠٢ ، يسد الثغرات التى تقع بين المؤرخين الأقدمين ، فيكمل ما يبدو فى تواريخهم من نقص . أما عن تاريخ خلفاء الإسكندر فديودور هو المرجع الوحيد فى أيدى المؤرخين ، ولذلك كان للكتب ١٨ و ١٩ و ٢٠ شأن كبير .

الكتب ٣١ — ٤٠ تتناول الفترة الواقعة بين ٣٠١ وسنة ٦٠ ق. م. ولم يبق منها إلا مقطوعات قليلة .



والآراء متضاربة فى أمر طريقة ديودور فى التأليف . فيرى البعض أنه يعتمد فى تاريخ عصر ما على مؤلف واحد يختاره ، ثم يسد ما يبدو له من أوجه النقص من مؤلفين آخرين ، ولكننا لا نستطيع أن نقر هذا الرأى ، فإن الكتاب الأول « فى مصر » يثبت أنه رجع إلى مصادر كثيرة ، وأنه استوعبها كلها، وأنه بدأ فى الكتابة بعد دراسة طويلة لمراجعة ، وأنه يذكر أحياناً مصادره ، ويغفل ذكرها أحياناً أخرى .

ويقول ديودور إن تأليف كتاب فى التاريخ العام عمل شاق [١ ، ٣] لأن مواد الدراسة متفرقة فى كتب كثيرة ، والآراء فيها متباينة تبايناً شديداً ، ولعله اختار هذا النحو من القول لإبلاغ القارئ أن ما فى الكتاب

مستقى من مصادر سابقة ، هذا إلى أن فى اختيار العنوان «خزانة التاريخ» ما يشير إلى أن ديودور يرى أن تاريخه لا يعدو أن يكون ملخصاً وافياً لتاريخ مطول فى مصادر متفرقة .

الكتاب الأول

يبدأ الكتاب الأول بمقدمة فى دراسة التاريخ ، تبيّن أن ديودور يؤمن إيماناً راسخاً بعقيدة الرواقيين فى فائدة دراسة التاريخ العملية ، ويقرر فيها أن ليس من أهدافه أن يجعل من تاريخه أداة لتسلية القارئ أو تزجية فراغه ، أو إشباع شهوة الاطلاع فيه . كان غرضه الأول بيان ما يمكن أن تأخذ به الإنسانية من أنظمة كل بلد ، ومن أغراضه ولا شك إذاعة شهرة عظماء الرجال ، والتنويه بجلائل أعمالهم ، حفزا للهمم ، وحثاً على العمل . ويتحدث بعد ذلك عن منشأ الكائنات الحية ، لأن فى الأساطير ما يشير إلى أن الكائنات الحية ظهرت أول الأمر فى مصر ، وكان نشوؤها ذاتياً [١ ، ١٠] ، ولقد ظل هذا الاعتقاد سائداً إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد . ثم يتحدث عن الآلهة ، لأن مصر موطنها الأصلى فيما تقول الأساطير [١ ، ٩] ، وليس احتفال ديودور بآلهة مصر ، ناشئا عن ولع بمصر أو غرام بالوصول إلى الحقيقة ، بل كان محاولة فى تفهم الدين المصرى على اعتبار أنه أصل الديانه اليونانية ، فقد كان ديودور مؤمناً إيماناً عميقاً بالآلهة اليونانية ، ولقد تجلت شدة إيمانه بها فى حديثه عن الزلازل

والفيضانات التى حدثت فى بلاد اليونان فى سنة ٣٧٣ ق. م. ، فقد عزاها إلى غضب الآلهة وخصوصاً پوزيدون إله البحر . هذا مع أنه كان مطلعاً على ما أبداه الفلاسفة الطبيعيون من أسباب لهذه الزلازل ، وتعليل لهذه الفيضانات .

ولقد شغله أمر الدين فى مصر عن تسجيل الحوادث السياسية والاجتماعية بعض الشئ ، وليس هذا شأنه دائماً ، فقد كان قليل الالتفات لمظاهر الدين حينما تناول تاريخ العصور المتأخرة فى بلاد اليونان مثلاً .

ثم ينتقل إلى تاريخ البلاد السياسى ، ونظامها الاجتماعى ، وعنى بتفصيل أمر الطبقات ، ونوه بفضل النظام الأريستوقراطى فى الحكم ، فقد كان ديودور من عائلة اريستوقراطية ، وكره تدخل العامة فى السياسة وهاجم النظام الديموقراطى فى كل مكان ، محتجاً على ما كان من انحلال أثينا من جراء إشراف العامة على سياسة البلاد .

أما المصادر التى اعتمد عليها فى تاريخ مصر ، فالمرجح إنه اعتمد فيما روى من عادات أهل البلاد وتقاليدهم على المؤرخ هيكاتيوس الأبدرى الذى زار مصر فى أوائل القرن الثالث ق . م . واعتمد فى وصف البلاد والحديث عن نهر النيل على المؤرخ الجغرافى أجاثارخيديس الإكنيدى الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثانى ق . م ، وألف كتاباً عن « البحر الأحمر » فى خمسة أجزاء . واعتمد فى الناحية التاريخية على هيرودوت .

وكثيراً ما يذكر ديودور روايات الكهنة المصريين فيما يستوضحهم من مسائل ، ولعله أضاف إلى ذلك ملاحظاته الشخصية لآثار البلاد وسكانها.

وثمة مصدر آخر ، فقد كانت اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية عندما زار ديودور مصر ، وكانت كذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وكانت سائدة فى الأوساط المتعلمة وصاحبة النفوذ ، فلعل هؤلاء كانوا مصدراً من المصادر التى استقى منها معلوماته . هذا إلى أنه لم يكن من الميسور للكهنة وهم يعلمون صلته بمن يتكلمون اللغة اليونانية من أهل البلاد ، أن يملوا عليه معلومات زائفة لا قدرة له على نقدها كما كان الأمر بالنسبة لهيرودوت مثلا . وهذا مما يعلى من شأن كتابه عند المؤرخين .

وفى الكتاب من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأنه رجع إلى أحسن المصادر فى استقاء تاريخه ، وأنه عرض آراء مؤلفيها أحسن عرض وأصدقه .

وإن الكتاب الأول الذى يكاد يكون مقصوراً على تاريخ مصر ، هو أدق وأوفى رواية أدبية — بعد كتاب هيرودوت — فى تاريخ البلاد ، ووصف آثارها ، وتقاليد أهلها .

وبعد فهذا كتاب ألف منذ حوالى ألفين من السنين ، ولنصه عندنا حرمة تجعلنا نتحرج من التصرف فى ترجمته ، ولذلك آثرنا الاقتراب من الأصل ، مبرزين أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره ، وأبقينا على أسماء البلدان كما جرى بها قلمه ، وأثبتنا فى لحق خاص ما يقابلها فى العصر الحديث ، وكذلك الأمر فى الموازين والمكاييل والأطوال .

الكتاب الأول

١ — إن الذين اضطلعوا بكتابة «تاريخ عام» لهم على الناس أجمعين حق الشكر الجزيل لأنهم كابدوا متاعب شخصية للنهوض بالحياة الإنسانية عامة . وإن التعاليم المفيدة التى يعرضونها فى دراستهم لا تشوبها شائبة من خطر فى حين يقدمون لقرائهم أثمن تجربة . والحق أن تمثل التجربة فى كل حالة على حدة يتضمن مشاقاً وأهوالا كثيرة فى الوقوف على أقوم السبل فى كل حالة . ولذلك فقد قاسى أعظم الأبطال تجربة أهوالا كبيرة حينما :

« عاين مدناً لشعوب كثيرة ، ودرس فكرهم » [1]

وإن ما تقدمه لنا دراسة التاريخ من فهم لسقوط الآخرين ونجاحهم ليذودنا بتعليم دون مقاساة تجارب . وبعد فقد أخذ المؤرخون على عواتقهم أن يجمعوا فى رسالة واحدة بعينها الجنس الإنسانى كله — هذا الجنس الذى يقرب بعضه من بعض فى الرحم ولكنه يبتعد بعضه عن بعض فى الزمان والمكان . وبهذا النحو يعمل المؤرخون كما لو كانوا قد خلقوا أداة للعناية الإلهية . لأن العناية الإلهية بعد أن أقامت الصلات بين نظام الكواكب المرئية الثابت وبين أخلاق الناس ، جعلت

(١) البيت لهوميروس من الأوديسية الكتاب الأول ، البيت الثالث

العالم كله تحت إشراف مستمر إلى الأبد . وأفردت لكل نصيبه وفقاً لمشيئة الأقدار . وكذلك المؤرخون يسردون حوادث الماضى فى العالم كله كما لو كان العالم بلداً واحداً ، فيقدمون فى بحوثهم ثبتاً واحداً لحوادث الماضى فى متناول الجميع . وجميل أن نستطيع أن نتخذ من خطأ الآخرين الأعمى موعظة لإصلاح سلوكنا وأن تكون عدتنا فى صروف حياتنا المتشابكة تقليد الذين نجحوا فى الماضى لا بحث الحوادث الراهنة . وفضلا عن ذلك ، فالناس كلهم يفضلون الشيوخ على الشبان فى المشاورة لما أضفته عليهم السنون من خبرة . ولكن دراسة التاريخ تفوق التجربة الفردية بما تمتاز به حقاً من الشواهد الكثيرة . ومن هنا يصح أن نعتبر تحصيل المعلومات التاريخية أفيد شىء فى صروف الحياة وتقلباتها . فمن التاريخ يتعلم الشبان حكمة الشيوخ ، ويجد الشيوخ تجاربهم التى حصلوها مضاعفة . ويجعل التاريخ المواطن العادى قادراً على القيام بأعباء القيادة ، ويدفع القادة بأمل الشهرة الخالدة إلى الاضطلاع بأنبل الغايات . هذا إلى أنه يجعل الجند أكثر استعداداً لمواجهة الأخطار فى سبيل بلادهم ، أملا فى حسن الذكر بعد الموت ، وهو يثنى الأشرار ويقمع دوافع الشر فيهم خوفاً من العار الأبدى .

٢ — وبالجملة فقد كان الأمل فى طيب الذكر فى التاريخ حافزاً للبعض على إنشاء المدن وللبعض الآخر على شرع القوانين التى تحيط الجمعية الإنسانية العامة بسياج من الأمان ، وباعثاً للكثيرين على الاجتهاد فى ابتكار الفنون والعلوم لفائدة الجنس الإنسانى . ولما كانت سعادتنا تتحقق

بجماع هذه المجهودات فيجب علينا أن نكيل أعلى أقداح الثناء لسببها الرئيسى وهو التاريخ. و ينبغى لنا أن نرى فى التاريخ حامياً لفضيلة النابهين، وشاهداً على رذيلة الوضعاء ، ومنعما على الجنس الإنسانى عامة . ذلك أنه إذا كانت الأساطير التى تدور حول العالم السفلى — وليس لها أس من الحقيقة — عاملا كبيراً فى تقوى العالم وعدله، فكم يكون التاريخ وهو نبىّ الحق، ومعقل الفلسفة كلها ، أشد قدرة فى رأينا فى توجيه الأخلاق الإنسانية نحو النبل والشرف ؟؟ والحق أن الناس أجمعين — لما فطرت عليه الطبيعة الإنسانية من ضعف — يحيون فترة قصيرة فحسب من الأزل ، وهم بعد هذه الحياة أموات إلى الأبد . فأولئك الذين لم يقوموا بعمل مذكور فى حياتهم ، عند ما تفنى أجسامهم يفنى معها كل ما يتصل بحياتهم. أما الذين كسبوا الشهرة بفضائلهم ، فتُذكر أعمالهم على الدوام ، يهتف بها صوت التاريخ الإلهى عالياً . ومن الخير فيما أعتقد و يوافقنى فى ذلك العقلاء من الناس ، أن نحظى بشهرة باقية لقاء نصب زائل . فهرقل مثلا قد تجشم بمحض اختياره — والروايات كلها متفقة فى ذلك — طول الوقت الذى قضاه بين الناس مشاقاً وأهوالا مستمرة ليفيد الإنسانية فيحظى بالخلود . أما سائر فضلاء الرجال ، فقد اكتسب بعضهم مجد الأبطال ، والبعض الآخر مجد الآلهة ، واعتُبروا جميعاً أهلا لخالص الثناء ، وقد خلّد التاريخ فضائلهم. وتبقى سائر الآثار زمناً قصيراً ثم تأتى عليها الصروف المختلفة ، أما قوة التاريخ فتنبسط على المعمورة كلها وتتخذ من الزمان الذى يعدو على كل ما عداه

حامياً للتراث المقيم بين الأعقاب . و يضيف التاريخ كذلك إلى قوة البيان وليس من السهل أن يجد المرء شيئاً آخر أفضل من هذا . فبه فاق اليونانيون البرابرة ، والعلماء الجهال ، هذا إلى أنه بوساطة هذا الفن وحده يتأتى لفرد واحد أن يسود الآخرين و بجملة من القول ، كل ما يعرض علينا يتخذ صورة متساوقة مع قدرة الخطيب الذى يعرضه، ونحن نسمى الرجال الفضلاء جديرين بالذكر، كأنهم ظفروا بالذكر بالقدح المعلى فى الشرف. و إذا قسّم البيان إلى فروعه العديدة ، لوقع أن الشعر يعطيك لذة لا فائدة ، والقوانين تردع دون أن تهذب، وهكذا فى سائر الفروع ، بعضها لا يضيف شيئاً إلى سعادتك ، و يسبب بعضها الآخر ضيقاً ممزوجاً بالفائدة ، والبعض الآخر يغير الحقيقة ، ولكن التاريخ وحده الذى تنسجم فيه الأقوال مع الأفعال ، يتضمن فى كتبه كل الفوائد . والتاريخ كما يُرى يحث الناس على العدل ، و يثلب الأشرار ، و يقرظ الصالحين ، و بالاختصار فهو يفيد قرّاءه خبرة ثمينة .

٣ — ولذلك كلما رأينا الذين يعنون بكتابة التاريخ يحظون بما هم أهل له من ثناء ، انسقنا إلى النزول إلى حلبتهم . ولما صرفت ذهنى إلى المؤرخين السابقين و بالرغم من موافقتى التامة على غايتهم ، استخلصت من كتبهم أنهم لم يجتهدوا فى تأليفها أن يبلغوا كمال النفع كما كان ينبغى ، ذلك بأنه بالرغم من أن فائدة القارىء تتحقق بفهم الكثير من الملابسات الشديدة الاختلاف ، فإن أكثر المؤرخين سردوا أخبار حروب تامة

فى حد ذاتها ، شنها شعب واحد أو دولة واحدة ولم يحاول إلا القليل أن يسردوا تاريخ الشعوب كلها من العصور القديمة إلى أيامهم ، وحتى هؤلاء لم يضع بعضهم كل حادثة فى سياقها المناسب ، وأهمل آخرون أخبار البرابرة . وأكثر من ذلك ، فقد رفض بعض المؤرخين الأساطير القديمة لصعوبة تناولها ، فى حين أن البعض الآخر لم يستطيعوا أن يتموا نهجهم لأن القدر اقتضب حياتهم .[1]

وفضلا عن ذلك ، فلم ينحدر واحد ممن تصوروا فكرة كتابة التاريخ العام بتاريخه إلى ما بعد العصر المقدونى ، فقد وقف بعضهم بتاريخه عند أعمال فيليب[2] ، والبعض الآخر عند أعمال الإسكندر ، وبعضهم وقف به عند خلفاء الإسكندر أو سلالاتهم . وبالرغم من أن حوادث خطيرة قد وقعت فى الفترة التالية لهذا العهد ، ولم تؤرخ إلى عهدنا هذا ، فلم يتصد مؤرخ واحد إلى تأليفها فى سفر واحد ، لضخامة العمل ، ولما كانت تواريخ الحوادث ، والحوادث نفسها متفرقة فى رسائل متعددة لمؤلفين مختلفين . فمن الصعب فهم هذه الفترة وتذكرها . وهكذا بعد أن فحصنا جميع المناهج التى اصطنعها كل من هؤلاء المؤرخين ، عقدنا العزم على أن نأخذ بأكثرها

(١) يظهر أن ديودور يعنى هيرودوت ولم يكن له نظام ثابت فى تقويم الحوادث ، وأنا كسيمينز من أهل لامبساكوس وقد قصر كتابه « يونانيات » على تاريخ اليونانيين ، وايفوروس الكيمى الذى اغتاله الموت قبل أن يفرغ من كتابة تاريخه فوقف به عند سنة ٣٤٠ ق . م .

(٢) فيليب الثانى ملك مقدونية ٣٥٩ — ٣٣٦ ق . م . وهو أبو الإسكندر الأكبر ٣٣٦ — ٣٢٣ .

فائدة للقارئ وأقلها مشقة عليه . ذلك أنه إذا أخذ المؤرخ على عاتقه أن يسرد — بقدر ما وسعته طاقته — ما تواتر لدى الناس من تاريخ العالم كله كأنه تاريخ بلد واحد ، من العصور القديمة إلى العصر الذى نعيش فيه ، فسيتجشم كما هو ظاهر مشاقاً كثيرة ، ولكنه سيؤلف أفيد الأسفار فى عين القارئ المدقق . وسيكون فى استطاعة كل قارئ أن يستنبط كما يشاء ، من هذا الشعر — كما لو كان نبعاً مترعاً — ما عساه أن يكون ذا فائدة له فى ملابساته الخاصة . ويجد الكتاب الذين يتصدون لسرد حوادث قد دونها هذا العدد الضخم من المؤرخين أن من العسير أولا الحصول على الكتب اللازمة لهم ، ومن الصعب ثانياً تفهم سير الحوادث وضبطه لاختلاف المصادر وكثرتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالموضوع الذى تحتويه دفتا سفر واحد ويشيع فيه سياق متصل للحوادث يكون من السهل قراءته وبسيط للغاية تتبعه وفهمه . وبالجملة ينبغى أن نعتبر هذا المنهج الأخير من التاريخ أفضل من سائر المناهج كما أن الكل أفضل من الجزء ، والسياق المتصل خير من المتقطع كما أن الحادثة التى يضبط تاريخها بدقة أفيد من حادثة لا يعرف فى أى زمان وقعت .

٤ — ولذلك فلما أن رأيت أن هذا المنهج فى التأليف وهو عظيم الفائدة يتطلب عملا شاقاً وزمناً طويلا فقد اشتغلت به ثلاثين عاماً . واحتملت فيه مشاقاً وأخطاراً جسيمة ، فزرت رقعة واسعة من آسيا وأوربه لأرى

بنفسى أكثر الأماكن وخصوصاً أكبرها خطراً . فقد كان الجهل بوصف المواقع فى الحقيقة سبباً فى كثير من الأخطاء التى وقع فيها مؤرخون لا من الطبقة المتوسطة وحدها ، بل ممن بلغوا ذروة الشهرة . وكان مما ساعدنى على القيام بهذا المشروع أولا وقبل كل شىء شغفى بالدرس ، فالشغف هو الذى يتيح للناس أجمعين أن يقوموا بأعمال تبدو بعيدة التحقيق . وأتيح لى ثانياً مدد عظيم فى روما من كل ما يمت لموضوعنا بصلة . لأن سمو هذه المدينة التى يمتد سلطانها إلى أطراف العالم هيأ لنا أثناء إقامتنا الطويلة فيها كثيراً من المواد القريبة المتناول ، إذ لما كنا من أهل مدينة أجريوم فى صقلية ، وكنا على صلات وطيدة بالرومان فى هذه الجزيرة واكتسبنا معرفة واسعة بلغتهم [1] ، فقد وقفنا على معلومات دقيقة لكل مراحل تاريخ الأمبراطورية الرومانية فى الوثائق الرسمية المحفوظة بعناية فى روما منذ أحقاب عديدة . ولقد استهللت تاريخنا بسرد أساطير اليونانيين والبرابرة بعد أن محصنا — بقدر ما وسعنا الجهد — الروايات التى أدلى بها كل شعب عن عصوره القديمة .

والآن وقد فرغ هذا السفر ، ولو أن بعض أجزائه لم ينشر بعد ، أحب أن أكتب مقدمة قصيرة تلم بأطراف الموضوع كله . فالكتب الستة الأولى تدور حول تاريخ الفترة السابقة لحرب طرواده [2] وأساطيرها ، وتتناول

(١) كانت اللغة اليونانية لغة صقلية الأولى فى ذلك العصر .

(٢) المأثور أن الحرب الطروادية دارت من سنة ١١٩٢ إلى سنة ١١٨٣ ق . م .

الثلاثة الأولى منها تاريخ البرابرة القديم ، والثلاثة التى تليها تكاد تكون قاصرة على تاريخ اليونانيين ، روى فى الكتب الإحدى عشر التالية التاريخ العام من حرب طروادة إلى موت الإسكندر . وأثبت فى الثلاثة والعشرين كتاب التالية سائر الروايات إلى مبدأ الحرب بين الرومانيين والغاليين ، تلك الحرب [1] التى هزم فيها القائد جايوس يوليوس قيصر الذى أُلّه من أجل أعماله المجيدة أكثر قبائل الغال ، وأشدها شغفاً بالحرب ، ومد حدود الأمبراطورية الرومانية إلى الجزائر البريطانية . وقد وقعت الحوادث الأولى من هذه الحرب فى السنة الأولى من الأولمبياد الثمانين بعد المائة حين كان هيروديس Herodes حاكما فى أثينا .

٥ — تلك إذن العهود التى يتناولها هذا السفر ، وإنى لم أحدد بالدقة حوادث العهد السابق للحرب الطروادية لأنه لم يصلنا تقويم نطمئن إليه فى تاريخ حوادث هذه العهود . ولكننا تابعنا أبولودوروس الآثينى [2] فى حساب ثمانين سنة بين الحرب الطروادية ورجوع أحفاد هرقل ، ومن هذا التاريخ إلى الأولمبياد الأولى حسبنا ٣٢٨ سنة ، وحسبنا الفترة منذ حكم الملوك فى أسبرطة ومنذ الأولمبياد الأولى إلى بدء الحرب الغالية التى جعلناها نهاية تاريخنا ب ٧٣٠ سنة ، وهكذا يتناول هذا السفر المؤلف من أربعين كتاباً تاريخ ١١٣٨ سنة فيما عدا العهد الذى وقعت حوادثه قبل الحرب الطروادية .

(١) بدأت الحرب الغالية سنة ٥٩ ق . م .

(٢) فيلسوف ومؤرخ عاش فى القرن الثانى ق . م . تناول فى كتابه « التقويم » الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٤ وسنة ١١٩ ق . م .

وإنا نشرح هذه المسائل بدقة بادىء ذى بدء لحرصنا على أن تعطى القارئ صورة عامة للموضوع كله ، ولنمنع الذين دأبوا على تصنيف الكتب من مسخ أعمال غيرهم[١] أما نحن فنرجو ألا يثير ما دوّن فى هذا السفر كله على وجه الدقة حسداً ، وأن تلاقى الأخطاء التى نتجت عن الجهل تصويباً ممن هم أكثر منا علماً .

والآن وقد بينا نهجنا وغايتنا سنحاول أن نحقق ما وعدنا به من بحث

٦ — لن أثبت بحثاً قائماً بذاته مفصلا فى العقائد الإلهية التى اعتنقها أولئك الذين كانوا أول من أدخل عبادة الآلهة ، ولا الأساطير التى رووها عن كل إله من الآلهة لأن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض . ولكننا سنثبت باختصار كل ما نراه متصلا بدراستنا هذه حتى لا يفوتنا شيء يستحق الذكر . أما فيما يتعلق بالجنس الإنسانى قاطبة فسأتناول بدقة الحوادث التى وقعت فى الأنحاء المعروفة من المعمورة بقدر ما يتيسر لنا فى مسائل حدثت فى هذا العهد البعيد ، بادئاً بأقدم العصور .

أما فى مسألة خلق الإنسان فى البدء فهناك رأيان عند أشد الفلاسفة الطبيعيين والمؤرخين تحقيقاً . فبعضهم يرى أن العالم لم يحدث أبداً وأنه لن يزول ، ويقولون إن الجنس الإنسانى كذلك وجد منذ الأزل وأنه لم يكن هناك أبداً زمن بدأ فيه الإنسان فى الظهور[٢] ويرى الآخرون أن العالم

(١) قال ديودور فى كتابه الجزء ٤٠ ، ٨ أن بعض أجزاء الكتاب وصلت إلى أيدى الجمهور قبل نشر الكتاب كله . فلعل فى هذه الجملة إشارة إلى عبث الناشرين بكتبه

(٢) كان هذا رأي أرسطو وخليفة ثيوفرست .

حادث وسوف يزول ، ويقررون أن الجنس الإنسانى كذلك كان ظهوره الأول فى وقت معلوم .

٧ — والمقول إنه فى البدء عندما كان الكون فى حالة تكوين ، كانت السماء والأرض فى صورة واحدة لأن طبيعتهما كانت متحدة ، وبعد ذلك عندما انفصل جسماهما الواحد عن الآخر ، اخذ الكون المظهر الذى يبدو فيه الآن . أما الهواء فأخذ فى حركة مستمرة ، وارتفع العنصر النارى فيه إلى الأجواز العليا ، فكل ما له هذه الطبيعة يرتفع إلى أعلا لخفته ، وهذا هو السبب فى أن الشمس وكل مجاميع الأجرام دائبة الحركة الكونية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يهبط العنصر اللزج الكثيف والمادة السائلة معاً إلى أسفل لثقلهما ، وهذا العنصر يتركز دائماً فى نفسه ويتكثف وهكذا كوّن البحر من السوائل وكوّن من الأجزاء الأكثر صلابة أرضاً كانت لا تزال لزجة شديدة الرخص ، وعندما أرسلت الشمس أشعتها عليها صارت هذه الأرض أولاً صلبة وبعدئذ عندما جعلت الحرارة أديم الأرض عطنا انبثقت بعض الرطوبة فى مواضع متعددة وتكونت فيها موادة عطنة مغطاة بغشاء رقيق . وتلاحظ هذه الظاهرة إلى الآن فى أرض البرك حينما تبرد الأرض ويصبح الهواء فجأة شديد الحرارة ، فالعناصر الرطبة التى تحييها الحرارة كما قد بينا ، تتغذى مباشرة أثناء الليل من الضباب الذى يتكثف من الهواء المحيط ، أما بالنهار فتصلبها الحرارة الشديدة ، وأخيراً عندما بلغت هذه الجراثيم أقصى نمائها وأصبح الغشاء شديد

السخونة فتشقق ، نشأت مخلوقات من جميع الأنواع .فأما التى اكتسبت منها حرارة شديدة ، فقد اتخذت أجنحة وارتفعت إلى الأجواز العالية ، وأما التى تعلقت بالطبيعة الأرضية فقد اندرجت بين الزواحف وسائر الهوام الأرضية . هذا فى حين أن تلك التى كان لها نصيب كبير من العنصر المائى فى تكوينها فقد استجابت إلى المنطقة التى تشابه طبيعتها وصارت كائنات مائيه . وحيث أن الأرض تزداد باستمرار صلابة بتأثير حرارة الشمس والهواء ، فقد أصبحت أخيراً غير قادرة على أن تخرج أياً من الكائنات الكبيرة ، وبدلاً من ذلك صار كل نوع من الكائنات الحية يتولد بمعاشرة كائنٍ آخر . ويبدو أن يوريبيديس وهو تلميذ اناكساجوراس (١) الفيلسوف الطبيعى لا يرى غير الرأى الذى أسلفنا ذكره فى طبيعة الكون ، فقد أورده فى مسرحية ميلا نيپى هكذا :

وهكذا كانت السماء والأرض فى صورة واحدة

ولما فتقتا وانفصلتا الواحدة عن الأخرى

انجبتا كل شيء وأرسلتا به إلى النور

الأشجار وذوات الأجنحة والكواسر ، والهوام التى يغذوها البحر

والإنسان الفانى .

٨ — هذه إذن هى الرواية التى وصلتنا عن مبدأ تكوين العالم ، ويقولون

(١) اناكساجوراس فيلسوف من المدرسة الأيونية عاش فى القرن الخامس ق .م. ويأتى ذكره ثانية فى الفصل الثامن والثلاثين .

أيضاً إن الناس البدائيين ، وكانوا يعيشون عيشة فوضى وحشية ، كانوا يخرجون إلى المراعى فرادى ويأكلون ألذ العشب وثمار الأشجار البرية ، ولما كانت الحيوانات المفترسة تهاجمهم ، ساعد بعضهم البعض بدافع من المصلحة ، ولما حدا بهم الخوف إلى التجمع ، أصبحوا بالتدريج يعرفون هيئة بعضهم بعضاً . وكان منطقهم مشكل لا يبين . وأخرجوا شيئاً فشيئاً ألفاظاً مبينة . وبعد ذلك اصطلحوا فيما بينهم على رموز للأشياء التى فى متناولهم ، وأبان بعضهم لبعض عن أفكارهم فى كل أمر . وقامت جماعات على هذا النحو فى العالم كله ، ولذلك لا يتكلم الناس كلهم لغة واحدة ، لأن كل جماعة ألَّفت لغتها كيفما اتفق ، وهذا هو تفسير اختلاف اللغات ، وهذه الجماعات البدائية للانسان هى أصل الشعوب كلها . وإذن فقد عاش الناس الأول حياة شاقة ، فلم تكن واحدة من مقوِّمات الحياة قد عرفت بعد ، فلم تكن لهم ملابس ولم يكونوا قد عرفوا المساكن والنار ولم يفطنوا بتاتاً إلى الغذاء المزروع . وكانوا فى الحقيقة فى جهل تام بحصاد المحصولات البرية ، فلم يهيئوا مخازن للحبوب لتفى بحاجتهم . وهكذا كان الكثيرون منهم يموتون فى الشتاء من جراء البرد وقلة الغذاء . ولكن التجربة علمتهم شيئاً فشيئاً أن يتخذوا من الكهوف مأوى أثناء الشتاء ، وكانوا يختزنون فيها من نباتات الحقول ما أمكن الاحتفاظ به ، ولما عرفوا النار وسائر المقومات المفيدة ، اكتُشفت شيئاً فشيئاً الفنون والحرف وسائر ما عساه أن يكون ذا فائدة فى حياة الإنسان . وبالجملة ،

فالضرورة وحدها هى التى علمت الإنسان كل شىء . ففى كل فن كانت الضرورة هادياً للرجل الذكى الذى أوتى يدان قادرتان على كل عمل وفصاحة منطق وذكانه عقل .

٩ — وسنكتفى بما أسلفنا فى مسألة مبدأ خلق الإنسان وحياة الناس البدائية ، فغايتنا أن نحتفظ بالتناسب فى هذا السفر . وسنحاول الآن أن نسرد الحوادث التى وقعت كما وصلنا فى مأثور القول ، فى الأنحاء المعروفة من المعمورة . ولسنا بقادرين أن نتحدث عن أول من حكم من الملوك ، ولا أن نتبع فى هذا الصدد المؤرخين الذين يدعون معرفتهم . فمن غير المعقول أن يكون اكتشاف الكتابة قديماً إلى حد أنه كان معاصراً للملوك الأول ، وحتى إذا سلمنا بهذا الفرض فإنه من الواضح على أى حال أن المؤرخين فئة حديثة الظهور فى الحياة العامة . ولا يدعى اليونانيون وحدهم إنهم أقدم الأجناس ، بل يشاركهم فى هذا الإدعاء كثيرٌ من البرابرة ، ذلك بأنهم يعتبرون أنفسهم سكان العالم الأصليين وأول من اكتشف الأشياء المفيدة فى الحياة ، ويعتقدون أن حوادث تاريخهم أول ما اعتبر أهل للتسجيل . ولسنا بقادرين من ناحيتنا أن نرى وجه الحق فى أمر قِدَم كل شعب ، ولا أن نقطع برأى فى أى الشعوب سبق الأخرى فى القدم ، وبكم من السنين سبقتها . ولذلك فسوف نسرد هنا باختصار الروايات التى يدلى بها كل شعب فى قدمه وتاريخه المتقادم . فغايتنا أن نحتفظ بالتناسب فى هذا السفر ، وسنتناول أولاً تاريخ البرابرة ، وليس ذلك لأننا نعتقد أنهم أقدم من

اليونانيين كما قال ايفوروس Ephorus بل لأننا نريد أن نروى بادىء ذى بدء تاريخهم حتى إذا بدأنا قولنا فى تاريخ اليونانيين لا نقحم حادثة أجنبية فى سياق تاريخهم .

ولقد كانت مصر ، كما تروى الأساطير مهد الأرباب الأول ، وهناك فيما يقال بدأ رصد النجوم ، هذا إلى أن حوادث كثيرة جديرة بالذكر قد سُجِّلت لعظماء الرجال فيها .

لذلك سنبدأ هذا السفر بتاريخ مصر .

١٠ — يقول المصريون إنه فى البدء عندما خلق العالم ظهر الإنسان أولاً فى مصر ، وذلك لاعتدال مناخ البلاد ولطبيعة نهر النيل فإن هذا النهر الوافر الإنتاج الذى يهيىء الغذاء الذى ينمو نمواً طبيعياً يقيم بسهولة أود المخلوقات بمجرد نشوئها ، ذلك أن جذور الغاب واللوطس وكذلك الفول المصرى والنبات المسمى كورسيون(١) وكثيراً غيرها مما يشاكلها تكفل لبنى الإنسان غذاء صالحاً شهياً . وهم يحاولون أن يدللوا على صحة ما يذهبون إليه من أن المخلوقات قد ظهرت أولا فى أرضهم ، بأن الأرض حول طيبة تخرج إلى يومنا هذا فى بعض الفصول جرذاناً كبيرة الحجم غفيرة العدد إلى حد يملأ الناظر عجبا من هـذه الظاهرة ، وبعض هذه الجرذان تتخذ سمتها حتى الصدر والقدمين الأماميتين ، وتأخذ فى الحركة فى حين أن بقية

(١) الكورسيون هو درنة النيلوفر الهندى Nymphaea stellata الذي ينبت على ضفاف النيل .

الجسم لم يتشكل بعد ، وما يزال طين الأرض باقيا فيه على حالته الطبيعية . ومن هذا يتضح أنه فى البدء عندما تكوّن العالم وصار مناخ الأرض معتدلا ، كان نشوء الإنسان لا بد فى أرض مصر ، لأن سائر أنحاء المعمورة فى الحقيقة لا تخرج الآن فى أى مكان منها واحدة من أمثال هذه الكائنات الحية . فى مصر وحدها يمكن أن ترى بعض المخلوقات فى طريقها إلى الحياة على هذا النحو غير المألوف . و بالجملة ، فهم يقولون إنه إذا كان أكثر الكائنات الحية قد هلكت فى الطوفان الذى حدث فى عهد ديوكاليون فمن الجائز أن يكون سكان مصر الجنوبية قد نجوا ، لأن هذه البلاد عديمة الأمطار فى الغالب . أما إذا كان الهلاك عاماً — كما يؤكد البعض — وكانت الأرض قد انجبت من جديد أنواعاً حديثة من الأحياء ، فإنه — حتى على هذا الفرض — يكون مبدأ ظهور الكائنات الحية أحرى بهذه البلاد ، ذلك أنه عندما اقترنت الأمطار الغزيرة التى هطلت على جميع الأنحاء ، بالحرارة التى تسود مصر ، أصبح المناخ فى غالب الظن شديد الملاءمة لخلق جميع الكائنات الحية من جديد . وحتى فى أيامنا هذه ، قد يرى المرء فى آخر موسم الفيضان بعض الأنواع من المخلوقات فى حالة نشوء واضحة فى جميع أنحاء مصر التى تغمرها مياه الفيضان ، ذلك أنه عندما تنحسر مياه النهر وتجفف الشمس حواف الطين تنشأ الحيوانات فيما يقولون ، فيكون بعضها تام التكوين ، فى حين أن البعض الآخر لا يزال فى طريق التكوين ملتصقاً بالأرض ذاتها .

١١ — ومهما يكن من شىء ، فإنه عندما تأمل سكان مصر الأول فى الكون وفى طبيعة العالم ، ملئوا دهشة و إعجاباً ، وتصوروا أن هناك إلهين أبديين أزليين هما الشمس والقمر ، يسمى أولهما أوزيريس وثانيهما إيزيس ويمكن شرح كلا هذين الاسمين بالرجوع إلى اشتقاقهما . فكلمة أوزيريس ، إذا ترجمت إلى اليونانية كان معناها « كثير الأعين » والسبب فى هذه التسمية واضح . ذلك أنه لما كانت الشمس ترسل أشعتها فى كل مكان فكأنها ترى الأرض كلها والبحر بأسره بعيون كثيرة . ويتفق قول الشاعر[١] مع ما ذكرنا .

« الشمس التى تطلع على كل شىء ، وتسمع كل شىء » .

و يطلق بعض كتّاب الأساطير القدماء عند الإغريق على أوزيريس إسم ديونيسوس Dionysus وقد يحرّفون الاسم إلى سيريوس Sirios ومن بين هؤلاء يومولپوس Eumolpus[٢] إذ يقول فى قصيدته فى مدح باخوس Bacchus

« ديونيسوس لماع كالنجم ، نارىّ الضوء »

وأورفيوس Orpheus حين يقول

« ولهذا يدعوه الناس فانيس[٣] وديونيسوس »

(١) الشاعر يعنى هوميروس ، والبيت من الأوديسية ١٢ ، ٣٢٣

(٢) الاسم يعنى فى اليونانية « المغنى المجيد » والمأثور أنه منشىء الأسرار الإليوسية.

(٣) فانيس Phanes رب يرمز فى الطقوس الأورفية إلى جوهر الحياة وهذه هى المرة الأولى التى يرد فيها هذا الاسم فى الأدب القديم .

ويقول البعض إن العباءة المتخذة من جلد الغزال التى يرتديها ترجع إلى السماء الموشاة بالنجوم. أما اسم إيزيس فلو ترجم كان معناه « القديمة » ومصدر هـذه التسمية ميلادها الأبدى الأزلى. أما القرنان اللذان يوضعان فوق رأسها فيرجعان إلى المظهر الذى تبدو فيه حينما تكون هلالا، وإلى البقرة التى تقدس باسمها عند المصريين. ويؤمن المصريون بأن هذين الإلهين يهيمنان على الكون بأجمعه، ويهيئان الحياة والنماء لكل شىء بوساطة فصول ثلاثة هى الربيع والصيف والشتاء، تتم دورتها فى اطراد غير ملحوظ. ومع أن هذه الفصول الثلاثة تختلف فى طبيعتها اختلافاً بيناً إلا أنها تتم السنة فى انسجام تام. وهذان الإلهان يهبان أعظم القوى الطبيعية لخلق الكائنات الحية، فالإله يبعث قوى الحرارة والروح، والإلهة تبعث قوى الرطوبة والجفاف وكلاهما يبعثان قوى الهواء، وهذه العناصر تنشىء كل شىء وتنميه. ومن ثم فإن الشمس والقمر ليسا سبب بلوغ هيكل العالم الطبيعى بأجمعه حد الكمال فحسب، بل إن هيكل العالم كله كذلك — فيما يدّعون — يتكون من تلك العناصر الخمسة، وهى عنصر الروح والحرارة والجفاف والرطوبة وآخرها الهواء، نعددها كما نعدد فى جسم الإنسان الرأس واليدين والرجلين وسائر الأعضاء.

١٢ — واعتبر المصريون الأوائل اللذين كانوا يتكلمون لساناً مبيناً كلاً من هذه العناصر إلهاً أطلقوا عليه اسماً خاصاً مناسباً لطبيعته، وهكذا أطلقوا على الروح اسماً نترجمه بزيوس، ولما رأوا أنه أصل عنصر الحياة

فى الكائنات الحية نظروا إليه كما لو كان أباً لجميع الكائنات. وهم يقولون إن أشهر شعراء اليونانيين يتفق معهم فى هذا الاعتقاد حينما يشير إلى هذا الإله قائلاً:

« أبو الناس والآلهة جميعاً »[1]

وأطلقوا على النار اسماً نترجمه بهفايستوس. فقد اعتبروه إلهاً عظيما ذا فائدة جلّى لكل شىء فى الإنتاج والنمو التام واعتبروا الأرض أشبه شىء بالرحم لكل ما ينبت وأطلقوا عليها اسم « الأم » Meter ويقرب من ذلك أن اليونانيين أطلقوا على الأرض اسم ديميتير Demeter، وقد حرّفت هذه الكلمة قليلا على مرّ الأيام فقد كان اسمها فى غابر الأزمان جيميتير Gemeter « أمنا الأرض » ويشهد بذلك أورفيوس فى قوله

« الأرض أم جميع الأشياء، واهبة الغنى والنماء »

أما عن عنصر الرطوبة فيقال إن القدماء أطلقوا عليه اسم أوقيانيس ومعناه « الأم الرؤوم » ولكن بعض اليونانيين يرون أن الاسم فى الأصل كان أوقيانوس. ويقول عنه الشاعر

« أوقيانوس مصدر الآلهة مع الأم تيثيس »[2]

ذلك لأن المصريين يعتقدون أن أوقيانوس هو نهر النيل عندهم وأن الآلهة نشأت على حافتيه، ومصر هى البلد الوحيد فى العالم كله الذى توجد

(١) هوميروس، الإلياذة ٨، ٤٩ والتعبير شائع فى الملحمتين.
(٢) « « ١٤، ٣٠٢ تيثيس Tethys هى زوج أوقيانوس.

فيه مدن كثيرة أنشأها الآلهة القدماء كزيوس Zeus وهليوس Helius وهرمس Hermes وأبلو Apollo وبان Pan وإيليثويا Eileithuia وكثيرين غيرهم[1]. أما عن الهواء فيقال إنهم أطلقوا عليه اسماً يقابله فى اليونانية أثينا Athena وأنهم اعتبروا أثينا ابنة لزيوس، وتصوروها عذراء لأن الهواء فى حالته الطبيعية نقى طاهر ويشغل المحل الأرفع من العالم بأسره، ومن هنا جاء فى الأساطير أنها خلقت من رأس زيوس. وترجع تسميتها بتريتوجينيا Tritogeneia « الثالوثية المولد » إلى أنها تغير طبيعتها ثلاث مرات فى السنة، فى الربيع والصيف والشتاء. وقد أطلقوا عليها أيضاً اسم جلوكوبيس Glaucopis[2] وليس ذلك لأنها — كما يتوهم بعض اليونانيين — زرقاء العينين، فذلك فى الحقيقة تعليل سخيف، بل لأن الهواء يبدو فى مظهره أزرق اللون. ويقولون إن هذه الآلهة الآنفة الذكر تطوف حول العالم كله وتتجلى للناس أحياناً فى شكل حيوانات مقدسة، وتتخذ أحياناً أخرى مظهر الإنسان أو هيئة سائر المخلوقات. وهم يقولون إن هذا ليس حديث خرافة، بل إنه ممكن الحدوث لأن هذه الآلهة هى فى الواقع خالقة كل شىء. ولما زار الشاعر مصر وسمع هذا القصص من الكهنة، أورد الرواية السالفة فى موضع ما من شعره كما لو كانت حقيقة واقعة فقال:

(١) عندما زار ديودور مصر كان كثير من البلاد يحمل اسماً يونانياً مثل ديوسبوليس وهليوبوليس وهرموبوليس وأبولينوبوليس وبانوبوليس وغيرها.

(٢) هذه الكنية تترجم عادة فى هوميروس « لماعة العين »

« وكذلك الآلهة، فى صورة أغراب من بلاد أجنبية »

« يتخذون مختلف الأشكال ويهيمون بين المدن »

« مطلعين على صلف الناس وبرهم سواء[1] »

هذا مثل مما يرويه المصريون عن آلهة السماء التى تتمتع بالخلد.

١٣ — ويقول المصريون إن مخلوقات أرضية ولدت من هذه الآلهة، وأنها كانت فى الأصل فانية ولكنها لحكمتها ولما أسدته للانسانية قاطبة من خير قد حظيت بالخلود. وأن بعضهم حكموا مصر، وقد اتخذ بعض هؤلاء لأنفسهم ألقاباً مطابقة لألقاب الآلهة السماوية فى اللغة المصرية، فى حين اتخذ البعض الآخر أسماء شخصية مثل هليوس Helius وكرونوس Kronus وريا Rhea وكذلك زيوس Zeus الذى يسميه البعض أمونا، وأضف إلى من سبق هيرا Hera وهيفايستوس Hephaestus وكذلك هستيا Hestia وأخيراً هرمس Hermes. وهم يقولون إن هليوس « الشمس » الذى يحمل نفس اسم الجرم السماوى كان أول ملوك مصر. إلا أن بعض الكهنة يذهب إلى أن هيفايستوس كان أول ملوك مصر، ذلك بأنه اكتشف النار، فارتقى المُلك من أجل هذه المأثرة. فقد حدث أن أصابت صاعقة شجرة على التلاع، وأخذت الغابة المجاورة تحترق، فيمم هيفايستوس شطرها، ولما كان الفصل شتاء فقد سُرّ بالنار سروراً عظيماً، ولكن لما خبت النار، طفق على الدوام يطعمها وقوداً، وفيما هو

(١) هوميروس: الأوديسية ١٧، ٤٨٥ — ٤٨٧

مُبقٍ النار مشتعلة على هذا النحو، استدعى سائر الناس ليشهدوا ما نتج عنها من خير و بركة .

وتلاه فى الحكم كرونوس الذى تزوج من أخته ريا وأنجب فى رواية البعض أوزيريس و إيزيس ، ولكن أكثر الناس يقولون إنه أنجب زيوس وهيرا اللذين حكما العالم بأسره لما أسديا من فضل وخير ، وولد لهما خمسة آلهة كل واحد منهم فى يوم من أيام النسىء الخمسة فى السنة المصرية ، وأسماء هذه الآلهة التى ولدت هى أوزيريس و إيزيس وطيفون Typhon وأپوللو وأفروديتى Aphrodite . وأوزيريس لو ترجم إلى اليونانية كان ديونيسوس و إيزيس قريبة الشبه جداً من ديميتير ، وقد تزوج منها أوزيريس ، ولما ولى الملك بذل جهده فى تحسين حال بنى الإنسان .

١٤ — وأول عمل قاما به هو منع الجنس البشرى من أكل بعضهم بعضاً . وكشفت إيزيس عن غلة القمح ، والشعير ، وقد كانا ينموان من قبل فى الحقول مع سائر النباتات كيفما اتفق ولكن الإنسان لم يكن قد فطن إليهما بعد ، أما أوزيريس فابتكر زراعة هذه الحبوب ، وعندئذ غيَّر الناس جميعاً طعامهم عن رضاً لما وجدوا من لذة فى طبيعة هذه النباتات التى كشفوا عنها ، وكذلك لما بدا لهم من أنه من الأفضل أن يقلعوا عن العنف والقسوة فيما بينهم . وللتدليل على كشف الغلال المذكورة يشير المصريون إلى التقليد المرعى بينهم من قديم الزمان ، فحتى فى وقتنا هذا يجمع الرجال فى وقت الحصاد حزمة من بواكير سنابل القمح و يقفون

إلى جانبها ضاربين صدورهم ومنادين باسم إيزيس . وهكذا يكرمون الآلهة لما قدمت لهم وما كشفت لهم فى أول الأمر . وفى بعض المدن تحمل فى عيد إيزيس سوق نبات القمح والشعير مع غيرها من الأشياء فى الموكب إحياء لذكرى هـذه الاستكشافات التى كشفت عنها الآلهة فى البدء ببراعة . و إيزيس قد سنت — فيما يقولون — القوانين التى تعامل الناس بمقتضاها فيما بينهم بالعدل وكفوا بموجبها عن استعمال القوة دون وجه حق وعن التطاول خوفاً من العقاب . ولذلك كان اليونانيون الأقدمون يسمون ديميتير المقنِّنة معترفين بذلك بأن الفضل يرجع إليها فى أن استقرت لديهم القوانين أول الأمر .

١٥ — وأسس أشياع أوزيريس — فيما يقال — مدينة ذات مائة باب فى إقليم طيبة المصرى ، وقد أطلقوا عليها اسم أمه ، ولكن بعض الأجيال المتأخرة أطلق عليها اسم ديوسپوليس « مدينة زيوس » وأسماها البعض الآخر طيبة . وتأسيس هذه المدينة ليس موضوع خلاف بين المؤرخين فحسب ، بل بين كهنة المصريين أنفسهم ، إذ يؤكد الكثيرون أن أشياع أوزيريس لم يؤسسوا مدينة طيبة ، و إنما أسسها أحد الملوك[1] بعد ذلك التاريخ بزمن طويل . وسنورد تاريخ عصره فى المكان المناسب . وتمجيداً لوالديهما زيوس وهيرا أقيم معبد امتاز بضخامته و باهظ تكاليفه ، له محرابان ذهبيان ، أما أكبرهما فلزيوس السماوى ، وأما أصغرهما فلأبيهما

(١) جاء فى الفصل الخامس والأربعين أن مؤسسها هو بوسيريس

زيوس الذى تولى ملك مصر ويدعوه البعض آمون .

أما الآلهة الاخر الذين سبق ذكرهم فقد أقيمت لهم محاريب من ذهب ورتبت لكل منهم طقوس ، ونصب كهنة للقيام عليها . وكما كان الحال مع أوزيريس وايزيس كذلك رتبت شعائر للآلهة التى ابتكرت الحرف والصناعات ، أو اخترعت شيئاً نافعاً . ومن ثم فإنه بعد اكتشاف مناجم النحاس والذهب فى إقليم طيبة ، صنعت الأدوات التى استخدمها الناس فى قتل الحيوانات المفترسة ، وفلاحة الأرض وفى التنافس فيما بينهم فى تمدين بلادهم ، وإقامة التماثيل والمحاريب الذهبية الباهرة للآلهة . وكان أوزيريس محباً للفلاحة أيضاً فقد ربى كابن لزيوس فى بلدة نيسا Nysa فى بلاد اليمن بالقرب من مصر . ولذلك يسمى عند اليونانيين ديونيسوس وهو لفظ مشتق من اسم أبيه ومن اسم هذه البلدة . ويحدثنا هوميروس فى أناشيده عن نيسا باعتبار أنها تقع بالقرب من مصر وذلك حيث يقول :

« وهناك مدينة نيسا ، جبل عال ، كثيف الغابات »

« مبعدة فى فينيقية ، وقريبة من جداول مصر »[1]

ويقولون إن أوزيريس وجد الكرم بالقرب من نيسا، وكذلك اكتشف طريقة عصر ثماره ، فكان أول من ذاق النبيذ وأول من علم الناس كافة غرس الكرم ، واستخراج النبيذ ، وقطف العنب وخزن النبيذ ، وقد لاقى هرمس على يديه تكريماً خاصاً دون سائر الآلهة لما أوتى من موهبة فذة

(١) الأناشيد الهومرية : ١ ، ٨ — ٩

فى استنباط ما عساه أن يكون ذا نفع فى حياة الناس جميعاً .

١٦ — ويرجع إلى هرمس الفضل فى الحقيقة فى تقويم لغة الإنسان ، وفى أن أشياء كثيرة وضعت لها أسماء بعد أن لم يكن لها اسم إلى ذلك الحين . وهو الذى ابتكر الحروف الهجائية ، ونظم شعائر العبادة ، وتقديم القرابين للآلهة وكان أول من فطن إلى أفلاك النجوم ، وطبيعة الأصوات وانسجامها ، وأنشأ حلبة المصارعة وعنى برشاقة حركات الجسم وسلامة تكوينه ، وصنع قيثارة ذات ثلاثة أوتار ، كل يقابل فصلا من فصول السنة، لأنه تخيل ثلاث درجات للصوت ، الدرجة العالية والمنخفضة والمتوسطة ، فالعالية تقابل الصيف ، والمنخفضة الشتاء ، والمتوسطة الربيع، وعلّم اليونانيين ترجمة اللغات ، ولذلك سمّوه هرمس « المترجم » . وبالجملة ، فإن أشياع أوزيريس اتخذوا من هرمس كاتباً مقدساً ، وأطلعوه على جميع أسرارهم ، واتبعوا على الأخص مشورته ، وهو الذى اهتدى إلى شجرة الزيتون وليست أثينا كما يزعم اليونانيون .

١٧ — ولما كان أوزيريس محباً للخير تواقاً إلى المعالى فقد عبأ — فيما يقال — جمعاً غفيراً لأنه عقد العزم على أن يجوب العالم كله ليعلم الجنس البشرى غرس الكرم ، وبذر حبوب القمح والشعير ، فقد اعتقد أنه إن يجعل الناس يقلعون عن همجيتهم ، ويأخذون نصيبهم من حياة التمدن، يحظ بالخلود جزاء ما أسداه من خير عميم ، وهذا ما حدث فعلا . فلم يقتصر الشكر على أولئك الذين نالوا نصيبهم من هذا الخير وقت كشفه ، بل إن

الأجيال التالية كذلك ما زالت — عرفاناً لصنيعة هذه الآلهة فى كشف هذا الغذاء الجديد — تقدسهم كآلهة متجلية لا ريب فيها .

وبعد أن نظم أوزيريس الأمور فى مصر ، سلّم مقاليد الحكم كله — فيما يقال — لزوجه إيزيس ، ونصب هرمس مستشاراً لها ، لأنه بز جميع أصدقائهما فى السياسة والحكمة ، ووكل إلى هرقل Heracles قيادة الجيوش فى جميع أركان المملكة ، لأنه يمت إليه بصلة القرابة ، ولأنه كان موضع إعجاب الجميع لشجاعته وقوته ، ونصب حاكمين يشرف أحدهما وهو بوسيريس Bousiris على المناطق التى تنحدر نحو فينيقية وساحل البحر ، ويشرف الآخر وهو أنطايوس Antaeus على الأقاليم المجاورة للحبشة وليبيا . أما هو فغادر مصر على رأس جيشه ليقوم بحملته ومعه أخوه الذى يدعوه اليونانيون أپولو . وأپولو هذا هو الذى اكتشف فيما يقال شجرة الغار الذى يتوج به الناس جميعاً تماثيل هذا الإله على التخصيص . ويعزى إلى أوزيريس اكتشاف اللبلاب الذى يعتبر مقدساً له كما يقدسه اليونانيون لديونيسوس ، ويقولون إن اللبلاب يعرف فى اللغة المصرية بنبات أوزيريس وهو يفضل الكرم عند تقديم القربان ، وذلك لأن الكرم يسقط أوراقه بينما اللبلاب يحتفظ بخضرته على الدوام . ولقد كان هذا رأى الأقدمين فيما يتعلق بسائر النباتات الدائمة الاخضرار ، فقد قدسوا الآس لأفروديتى والغار لأپولو .

١٨ — وعلى أى حال ، فقد خرج — فيما يقال — مع أوزيريس

فى حملته هذه ولداه أنوبيس Anubis ومقدون Macedon اللذان امتازا بالبسالة ، وحمل كلاهما معدات تسترعى الأنظار ، اتُّخِذَت من حيوانات تتناسب جرأتها مع شجاعتهما ، فقد اتخذ أنوبيس خوذته من جلد الكلب ، أما مقدون فقد اتخذ قناعاً يشبه وجه الذئب . ولهذا بُجِّلت هذه الحيوانات عند المصريين . وصحب أوزيريس أيضاً فى هذه الحملة بان Pan الذى بالغ المصريون فى عبادته ، فلم يُقِم له الوطنيون التماثيل فى كل معبد فحسب بل أنشأوا باسمه مدينة فى إقليم طيبة دعاها الوطنيون خمو Chemmo ومعناها لو ترجمت إلى اليونانية «مدينة بان» . ورافقه كذلك ممن لهم خبرة بشئون الفلاحة مارون Maron لمهارته فى غرس الكرم ، وتريپتوليموس Triptolemus لكفايته فى بذر القمح وسائر عمليات حصاده ، ولما أعد كل شىء بدأ أوزيريس رحلته مخترقاً الحبشة ، بعد أن نذر للآلهة أن يرسل شعره إلى أن يعود إلى مصر . وهذا هو السبب فى أن سنّة إطلاق الشعر قد انتشرت فى مصر إلى عصر متأخر ، وفى أن الذين يسافرون إلى الخارج يطلقون شعورهم إلى أن يعودوا ثانية إلى بلادهم . وبينما كان أوزيريس فى الحبشة ، قدموا له — فيما يقال — طائفة الساتيرين Satyri ذوى الحقاء المشعرة ، لأن أوزيريس كان محباً للمرح ومولعاً بالموسيقى والرقص . ولهذا السبب نفسه رافقه فى رحلته جمع غفير من المنشدين بينهم تسع غانيات يجدن الغناء وسائر الفنون وهن اللائى يدعوهن اليونانيون موزاى Musae « ربّات الفنون » ، وكان على رأسهن أپولو ومن هنا سمى « رائد ربات

الفنون» موزيجيتيس Musigetes ، وقد استصحب فى حملته أيضاً الساتيرين لمهارتهم فى الرقص والغناء وبراعتهم فى جميع فنون التسلية واللهو ، لأن أوزيريس لم يكن محارباً، ولم يحشد جنده للمواقع والأخطار، إذ تقبلته جميع الشعوب إلهاً عن رضاً لما حباها من نعم ، وفى الحبشة عَلَّم الناس شئون الفلاحة وأنشأ مدناً جديرة بالذكر وترك وراءه رجالا يشرفون على شئون البلاد ويجمعون الخراج .

١٩ — ويحكى أنه بينما كان هؤلاء فى شاغل من أمر رحلتهم فاض النيل على جانبيه إبّان ظهور الشعرى اليمانية ، وهو الوقت الذى يرتفع فيه النهر عادة ، وأغرق مساحة عظيمة من أرض مصر وبخاصة المنطقة التى تقع تحت إشراف بروميثيوس Prometheus ، وكاد بروميثيوس أن يبخع نفسه لفرط حزنه لأن كل من كانوا فى تلك المنطقة هلكوا على بكرة أبيهم . وأطلق على النهر اسم النسر Aetus لسرعة تياره وشدة تدفقه . ولما كان هرقل رجلا شهماً توّاقاً إلى الفتوة ، فقد سد الثغرة بسرعة، وأعاد النهر إلى مجراه الأصلى ، ولقد جعل شعراء اليونانيين من هذه الحادثة أسطورة بأن قالوا إن هرقل قتل النسر الذى كان ينهش كبد بروميثيوس . وأقدم اسم عرف لنهر النيل هو أوقيانيس ويترجم إلى اليونانية بأوقيانوس ، ويقال إنه سمى نسراً لما حدث من فيضان . وقد أطلق عليه فيما بعد اسم إيجيبتوس Aegyptus نسبة إلى ملك قديم من ملوك البلاد ويشهد الشاعر على صحة ذلك فى قوله :

« وأرسيت سفنى المقوسة فى نهر إيجيبتوس »(١)

ويصب النهر فى البحر عند بلدة تسمى ثونيس Thonis ، وقد كانت هذه ثغر مصر التجارى فى العصر القديم . أما آخر اسم للنهر وهو ما يعرف به الآن فقد اشتق من اسم الملك نيلوس Nilus . وعلى أى حال ، لما وصل أوزيريس إلى تخوم الحبشة ضبط مياه النهر بإقامة السدود على جانبيه حتى لا تطغى المياه على الأرض وقت الفيضان أكثر مما ينبغى . وأقام فتحات تنساب المياه منها فى رفق بمقدار، كلما دعت الحاجة . ثم واصل سيره بمحاذاة ساحل البحر الأحمر(٢) مخترقاً بلاد العرب حتى وصل إلى الهند وأقاصى المعمورة . وفى الهند أنشأ مدناً ليست بالقليلة ، أطلق على إحداها اسم نيسا ، فقد أراد أن يخلف هناك ما يخلد ذكرى البلدة التى نشأ فيها بالقرب من مصر . وأدخل فى نيسا من أعماق الهند زراعة اللبلاب ، وهذه هى المنطقة الوحيدة فى الهند كلها وما يجاورها من البلاد التى ينمو فيها هذا النبات إلى اليوم . ثم خلف وراءه فى طول البلاد وعرضها شواهد كثيرة أخرى على إقامته ، مما حمل الأجيال التالية من الهنود على التلاحى بشأن هذا الإله ، مدعين أنه هندى الأصل .

٢٠ — واشتغل أوزيريس كذلك بصيد الفيلة وترك وراءه فى كل مكان شواهد تشير إلى حملته الخاصة هذه ، ثم اخترق سائر القبائل

---

(١) هوميروس : الأوديسية ١٤ ، ٢٥٨ .

(٢) البحر الأحمر عند اليونانيين الأقدمين يعنى البحر الأحمر كما نعرفه الآن والمحيط الهندى والخليج الفارسى .

الأسيوية حتى عبر الدرنيل فى طريقه إلى أوربا . وفى تراقيا قتل ليكرجوس Lycurgus ملك البرابرة لأنه وقف فى وجه مشروعاته ، وترك وراءه مارون وقد صار إذ ذاك كهلا ، ليشرف على ما غرس من نباتات فى تلك البلاد، وأوعز إليه أن يبتنى مدينة باسمه وهى التى تدعى مارونيه Maronea وترك من بعده ابنه مقدون ملكاً على البلاد التى سميت باسمه مقدونيا . وعهد إلى تريبتوليموس فى العناية بشئون الفلاحة فى أتيكا ، وأخيراً و بعد أن جاب كل أنحاء المعمورة ، حبا البشر بنعمة الحبوب السهلة الزراعة والوفيرة الإنتاج ، وعلم سكان المناطق غير الصالحة لزراعة الكرم صنع شراب مستخرج من الشعير[1] ولكنه لا يقل كثيراً عن النبيذ نكهة وقوة . وعند عودته إلى مصر جلب معه من جميع البلاد أحسن الهدايا ، وقد رفعه الجميع بلا استثناء لعظم نفحاته إلى مرتبة الخلود ، وقدسوه كما يقدسون أرباب السماوات ، ولما رفع من بين الناس إلى مصاف الآلهة ، رتبت له إيزيس وهرمس الضحايا وسائر آيات التكريم ، وأقاما له شعائر خفية خاصة، واستحدثا كثيراً من الطقوس السرية تمجيداً لعظمته وقوته.

٢١ — و بالرغم من أن الكهنة قد احتفظوا من قديم الزمان بقصة موت أوزيريس فى طيات الكتمان، إلا أنه بتراخى الزمان أظهر بعضهم العامة على هذا السر . وأوزيريس فيما يقولون كان ملك مصر الشرعى ، وقتله أخوه تيفون وقد كان قوياً فاجراً ، و بعد أن مزق جثته إلى ستة

(١) ورد ذكر الجعة المصرية في الفصل الرابع والثلاثين باسم زيثوس

وعشرين جزءاً أعطى كل واحد من حلفائه جزءا . لأنه أراد أن يشركهم جميعاً فى هذا الجرم، وظن أنه يجعل منهم بذلك أعواناً وحراساً أقوياء لعرشه. ولكن إيزيس أخت أوزيريس وزوجه ثأرت لمقتله بمساعدة ابنها حورس Horus وقضت على تيفون وشركائه، واستولت على عرش مصر ، وقد نشبت الموقعة بينهم على شاطىء النهر بجوار تلك القرية التى تعرف الآن باسم أنطايوس Antaeus ، وهى تقع فيما يقال تجاه بلاد العرب . وقد اشتق اسم هذه القرية من اسم أنطايوس[1] الذى كان معاصراً لأوزيريس وقد نال عقابه على يدى هرقل. ومهما يكن من شىء ، فقد وجدت إيزيس جميع أجزاء الجثة ما عدا السوءة . ولما كانت ترغب فى أن تخفى قبر زوجها، وأن تجعله فى الوقت نفسه موضع التقديس من جميع سكان مصر ، فقد أنفذت رغبتها هذه على النهج التالى : يحكى أنها صنعت تمثالا من الشمع والعطور قريب الشبه من أوزيريس وفى حجمه ، حول كل جزء من أجزاء الجسم ، ثم استدعت الكهنة فئة بعد فئة وأخذت عليهم جميعاً العهد على أن لا يبوحوا لأحد ما بما اؤتمنوا عليه من سر ، ثم قالت لكل فئة منهم على حدة أنها وكلت إليها أمر دفن الجثة ، وجعلت تذكر كل فئة بالنعم التى أسداها أوزيريس، ودعتهم إلى دفن الجثة فى حرمهم الخاص بهم، وحضتهم على تقديسه كإله ، وعلى تقديس أحد الحيوانات — أيا اختاروا —

(١) فى الأساطير أنه ابن البحر والأرض ، وكان يستمد قوته من أمه الأرض بملامسة قدمه لها ، ولم يستطع هرقل أن يغلبه إلا بعد أن رفعه فى الهواء .

باسمه، على أن يقدس الحيوان طالما كان فى قيد الحياة ، كما كانوا يقدسون أوزيريس من قبل، فإذا نفق، عُدَّ جديراً بأن يدفن كما دفن أوزيريس . ولما كانت تحرص على أن تدفع الكهنة إلى الاستمساك بهذه التشريفات بدافع من مصلحتهم الذاتية، فقد أعطتهم ثلث الأراضى المصرية فى مقابل قيامهم بعبادة الآلهة وخدمتها . أما الكهنة ، فعرفاناً منهم بأنعم أوزيريس على حد قولهم ، وحرصاً منهم على إرضاء إيزيس ، ويحفزهم فوق ذلك دافع من المصلحة الذاتية ، فقد قاموا بجميع ما أوحت به إيزيس . وذلك هو السبب فى أن كل جماعة من الكهنة تعتقد إلى يومنا هذا بأن أوزيريس قد دفن بين ظهرانيهم . ولا زالوا يقدسون الحيوانات التى خصصت له من قديم الزمان ، وعند موتها يستأنف الحداد على أوزيريس من جديد عند قبورها ، وخصص له العجلان المقدسان اللذان يسمى أحدهما أبيس Apis ، ويسمى الآخر منيفيس Mnevis ، وفرضت عبادتهما كأنهما إلهان على جميع المصريين على السواء . وذلك لأن نفع هذه الحيوانات عظيم للغاية لمكتشفى الحبوب عند بذر الحب وفى سائر العمليات الزراعية ذات المنفعة العامة .

٢٢ — ويقال إن إيزيس أقسمت بعد موت زوجها ألا تتخذ لها بعلاً مرة أخرى ، وقد ظلت إلى آخر أيامها تحكم مصر بالقسطاس المستقيم حتى بزت الجميع فى البر برعيتها . ولما انتقلت بدورها من بين البشر، وُضِعَت فى مصاف الخالدين ، ودفنت بمنفيس حيث يرى ضريحها إلى وقتنا

هذا قائماً فى حرم معبد هيفايستوس . ولكن يزعم البعض أن جسدى هذين الإلهين ليسا فى منفيس بل يرقدان على الحدود بين الحبشة ومصر فى جزيرة فى النيل بالقرب من الموضع الذى يقال له فيلاى Philae ويطلق على هذه الجزيرة اسم « السهل المقدس » لذلك السبب . ويستشهدون على صحة دعواهم هذه بقبر أوزيريس الذى يقدسه كهنة مصر أجمعين والذى ما يزال قائماً فى هذه الجزيرة تحيط به ثلثمائة وستون جرة يملأها الكهنة الموكلون بهذا الأمر لبناً كل يوم بين العويل والدعاء باسمى هذين الإلهين . ومن أجل هذا حرم دخول هذه الجزيرة على الغرباء . ويعتبر كل سكان إقليم طيبة وهو أقدم الأقاليم المصرية ، القَسَم بأوزيريس الراقد فى فيلاى أغلظ الأيمان . ويقال إن أعضاء أوزيريس التى عثر عليها قد دفنت كما يليق بها بالطريقة التى ذكرنا . ولكن إيزيس رأت أن سوءته — وقد ألقى بها تيفون فى النهر على حد قولهم لأن جميع اشياعه أبوا أن يقبلوها — أهل للتقديس مثل سائر الأعضاء . فأقامت لها صورة فى المعابد واختصتها بالتبجيل ، وجعلت تلك الصورة أثناء الطقوس السرية وتقديم الضحايا لذلك الإله، محلا لأبلغ التبجيل وأوفر التقديس. ولذلك يقدسه اليونانيون الذين أخذوا عن مصر الشعائر السرية وعبادة ديونيسوس فى طقوسهم الخفية وشعائرهم السرية وعند تقديم الضحايا لهذا الإله، وهم يسمون هذا العضو فاللوس Phallus .

٢٣ — وانقضى — فيما يقال — بين عهد أوزيريس وإيزيس وبين

حكم الإسكندر الذى أنشأ فى مصر المدينة التى تسمى باسمه — أكثر من عشرة آلاف سنة . ولو أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن الفترة بين هذين العهدين تقل قليلا عن ثلاثة وعشرين ألف سنة . ويقولون إن الذين يزعمون أن أوزيريس هو ابن زيوس وسميلى Semele وقد ولد لها فى طيبة من أعمال بيوشيا يلقون القول على عواهنه . ذلك بأنه عند ما زار أورفيوس Orpheus مصر ، اشترك فى الشعائر الخفية والطقوس السرية لديونيسوس . ولما كان أورفيوس صديقاً لبنى قادموس ، مكرماً بينهم ، فقد حرف قصة ميلاد ديونيسوس سعياً فى مرضاتهم ، وتقبل الدهماء هذه الشعائر الخفية والطقوس السرية راضين، لجهلهم بالحقيقة من ناحية، ولأنهم أحبوا أن يعتبر الإله يونانياً من ناحية أخرى . وقد لجأ أورفيوس إلى المعاذير الآتية فى تحريفة للرواية الخاصة بمولد الإله وتغييره الطقوس الخفية . فقد كان من بين أبناء قادموس الذى ولد فى طيبة من أعمال مصر ، ابنة تدعى سميلى اغتصبها رجل غير معروف فحملت منه ، و بعد انقضاء سبعة أشهر، ولدت طفلا اعتقد المصريون أن طلعته تشبه طلعة أوزيريس . وهؤلاء الأطفال لا يولدون عادة أحياء ، إما لأن الآلهة لا ترضى بذلك ، أو لعلها الطبيعة لا تسمح به . ولما أدرك قادموس ماحدث وكان قد أوحى إليه أن يحيى شعائر آبائه ، غطى الطفل الرضيع بوشاح من ذهب ، وقرب إليه الضحايا التى تناسب مقامه كما لو كان أوزيريس قد تجلى للناس . وكذلك ألحق الطفل بزيوس ، تمجيداً لأوزيريس ومحواً للعار الذى لحق بابنته التى

هُتِك عرضها . وفى العصور المتأخرة أصبح أورفيوس ، الذى ذاعت شهرته العظيمة بين اليونانيين، لجودة إنشاده وطقوسه السرية وقصصه عن الآلهة ، صديقاً حميماً لبنى قادموس، ولقى فى طيبة تقديساً فائق الحد ، و بعد أن وقف على عقائد المصريين الدينية ، نقل مولد الإله القديم إلى عصر متأخر ، وأنشأ إرضاء لبنى قادموس طقساً جديداً يبشر فيه المريدين بأن ديونيسوس هو ابن زيوس وسميلى . أما جمهرة الناس فقد خدعوا تماماً إما لجهلهم بالحقيقة أو لاعتقادهم أن أورفيوس أهل للثقة وعارف بهذه الأمور، وتقبل أكثر الناس بسرور الرأى القائل بأن هذا الإله يونانى كما ذكرت آنفاً ، وتمسكوا بمناسك عبادته . و بعدئذ تناول القصاص والشعراء قصة ميلاد هذا الإله وملأوا بها المسارح فأصبحت عقيدة راسخة لا تتغير لدى الناس على كر الدهور .

٢٤ — و بالجملة ، فالمصريون يقولون إن اليونانيين ينحلون لأنفسهم أشهر الأبطال والآلهة بل ومستعمرات المصريين . فهرقل مثلا وهو مصرى الأصل استعان بقوته فى جوب مساحة شاسعة من المعمورة وأقام نصباً على حدود ليبيا . ويحاول المصريون أن يجدوا فى القصص اليونانى أدلة على صحة هذه الدعوى ، فبينما يجمع الناس قاطبة على أن هرقل بذل المعونة لآلهة أوليمبوس فى حربهم ضد المردة ، يقول المصريون إنه من غير الممكن اطلاقاً أن تخرج الأرض المردة فى الوقت الذى يقول اليونانيون إن هرقل

ولد فيه أى فى الجيل السابق لحرب طروادة[١]، بل يرجح المصريون أنفسهم أن يكون ذلك قد حدث فى بدء الخليقة ، ويقع ذلك فى حسابهم منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، فى حين أنه قد مضى على حرب طروادة أقل من مائتين وألف سنة .

هذا إلى أن الهراوة وجلد السبع يناسبان هرقل إذا تخيلناه فى ذلك العصر القديم ، ففى ذلك العصر لم تكن الأسلحة قد عرفت بعد وكان الناس يدافعون عن أنفسهم بالهراوى ضد أعدائهم ، ويتخذون من جلود الحيوانات دروعاً واقية . ويقول المصريون إن هرقل بن زيوس ولكنهم يقولون إنهم لا يعرفون من أمر أمه شيئاً . أما ابن الكمينى Alcemene فقد ولد بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشرة آلاف سنة وسمى عند مولده ألكيوس Alcaeus[٢] ثم غيّر الاسم بعد ذلك إلى هرقل ، لا لأنه اكتسب شهرته عن طريق هيرا كما يقول ماتريس Matris[٣] بل لأنه قلّد هرقل القديم فى أسلوب حياته فورث شهرته واسمه . وتتفق أقوالهم مع ما أثر عند اليونانيين من قديم الزمان من أن هرقل طهّر الأرض من الوحوش الضارية، وهى دعوى لا يمكن أن تلحق بحال ما ببطل ولد حوالى عصر الحروب الطروادية ، حين كان الجزء الأكبر من المعمورة قد تحضّر وانتشرت فيه

(١) جاء فى الأساطير اليونانية أن هرقل كان معاصراً للاؤميدون أبى بريام ملك طروادة ، وأنه استعان بإله البحر بوزيدون فى إقامة أسوار طروادة .

(٢) ألكيوس هو اسم جد هرقل

(٣) لا نعرف عن ماتريس هذا إلا أنه كتب قصيدة فى مدح هرقل

الزراعة وأنشئت المدن وانتشر السكان فى كل مكان . وعلى ذلك فإن دعوى تمدين العالم أحرى بأن تلحق بهرقل الذى عاش فى العصور القديمة حين كان لجوع الحيوانات المفترسة الغلبة على الإنسان وخصوصاً فى مصر فى صعيدها الذى ما زال إلى وقتنا هذا بيداء يعمرها الحيوان المتوحش . ومن المعقول أن هرقل حينما استرعت هذه المنطقة انتباهه — وهى مسقط رأسه ، طهّرها من الحيوانات المفترسة وهيأها للزارعين . فاستحق من أجل هذه المنة المجد الإلهى . ويقول المصريون أن برسيوس Perseus أيضاً ولد فى مصر . وأن اليونانيين الذين يروون فى أساطيرهم أن إيو Io قد مسخت بقرة ، جعلوا أرجوس Argos مسقط رأس إيزيس .

٢٥ — وبالجملة فقد اختلفت الآراء كثيراً حول هذين الإلهين لأن الإلهة عينها تسمى أحياناً إيزيس وأحياناً أخرى ديمتير وأحياناً ثسموفوروس (المقننة) وأحياناً سيليني (القمر) وأحياناً هيرا، بينما يدعوها البعض الآخر بجميع هذه الأسماء . أما أوزيريس فيدعى مرة سيرابيس ومرة أخرى ديونيسوس ومرة ثالثة بلوتو ورابعة آمون ويسميه بعضهم زيوس ويظنه الكثيرون بان نفسه ويذهب البعض إلى أن سرابيس هو الإله الذى يدعوه اليونانيون بلوتو . ويقول المصريون أن إيزيس اكتشفت أدواء كثيرة لتحسين الصحة فقد كانت ذات خبرة عظيمة فى فن الطب ، ولذلك فإنها تجد لذة عظمى حتى بعد أن رفعت إلى مصاف الآلهة فى مداواة بنى الإنسان . وفى الأحلام تبذل العون لمن يهيبون بها ، فتقيم بذلك الدليل الساطع على تجليها الذاتى وحسن صنيعها

لمن يلوذ بها من الناس. ويقول المصريون أنفسهم أنهم يقيمون الدليل على زعمهم هذا بوقائع بيِّنة، لا بأساطير كالتى يزجيها اليونانيون. ويكاد العالم أجمع[1] يشهد للمصريين على صحة دعواهم، لأن الناس ينافس بعضهم بعضاً فى تبجيلها لما تبديه من مظاهر التجلى فى مداواة المرضى، فهى تقف بجانب المرضى فى المنام، وتقدم لهم الدواء لدائهم وتأتى بالمعجزات فى شفاء الذين يسلمون إليها الأمر منهم، وقد شفى على يديها الكثيرون ممن استيأس منهم الأطباء لاستعصاء دائهم، وكثيرٌ ممن فقدوا أبصارهم تماماً أو اعتل منهم عضو من أجسامهم عادوا إلى حالتهم السابقة لما فزعوا إليها، وقد اكتشفت أيضاً إكسير الخلود. ولما تآمر العمالقة على قتل ابنها حورس، ووجدت جثته هامدة تحت الماء، استطاعت بهذا الإكسير لا أن تبعثه حيا وتنفخ فيه الروح فحسب، بل جعلته ينال نصيبه من الخلود أيضاً. وقد اتفق المؤرخون على أن حورس كان آخر الآلهة الذين تبوأوا عرش مصر بعد أن رفع أبوه أوزيريس إلى السماء. ويقال إن حورس، ويدعى عند اليونانيين أپوللو، بعد أن لقنته أمه فنون الطب والعرافة، أحسن إلى الجنس البشرى بالكهانة والتطبيب.

٢٦ — ويقدر كهنة المصريين الفترة بين حكم هليوس «الشمس» وبين غزو الإسكندر لآسيا بثلاث وعشرين ألف سنة تقريباً. وقد حكم

(١) انتشرت عبادة إيزيس بامتداد نفوذ البطالمة، ولم تكد تخلو منها مدينة ذات شأن فى حوض البحر المتوسط.

أقدم آلهتهم كما جاء فى أساطيرهم أكثر من مائتى وألف عام. وحكم من جاءوا بعدهم فترة لا تقل عن ثلثمائة عام. ولما كان هذا العدد الضخم من السنين غير معقول، فقد حاول البعض أن يفسِّر الأمر بأنه قد جرت العادة من قديم الزمان قبل أن يفطن الناس إلى حركة الأرض حول الشمس، بأن تحسب السنة بدوران القمر، ولما كانت السنة على هذا الاعتبار ثلاثين يوماً، فمن المعقول أن يكون بعض الناس قد عاش مائتى وألف عام. ففى وقتنا هذا، والسنة اثنتا عشر شهراً، ليس بقليل من يعيش أكثر من مائة عام، ولهم فى أمر الذين اشتهروا بأنهم حكموا أكثر من ثلثمائة عام تفسير مشابه، فهم يقولون إن السنة فى تلك العصور كانت مؤلفة من الأشهر الأربعة التى يتألف منها الفصل الواحد من فصول السنة — الربيع والصيف والشتاء. ولذلك يسمى بعض اليونانيين السنة «فصلاً» والتقاويم السنوية «التقاويم الفصلية».

ولقد جاء فى الأساطير المصرية كذلك أنه ظهر فى عهد إيزيس مخلوقات ذات أجسام متعددة، سماها اليونانيون المردة[1]، وقد صورهم المصريون على جدران معابدهم فى أوضاع عجيبة وقد انهال عليهم أشياع أوزيريس ضرباً. ولكن يقول البعض إن المردة ولدتهم الأرض يوم بدأت الكائنات الحية فى النشوء. ويذهب البعض إلى أن تواتر القصة

(١) المردة فى الأساطير اليونانية مخلوقات ذات أجسام هائلة لا متعددة. ويرى فوجل Vogel أن النص غير متصل، وأن الأصل كان «سماها اليونانيون المردة، ويسميها المصريون ...

بأنهم ذوو أجسام عدة يرجع إلى تفوقهم فى القوة البدنية و إلى ما قاموا به من الأعمال الهائلة ، وقد أجمع الرواة على أنهم أبيدوا جميعاً فى حربهم مع زيوس وأوزيريس والآلهة الموالية لهما .

٢٧ — وعلى نقيض العرف السائد بين الناس أجمعين ، يجيز القانون المصريين أن يتزوجوا من أخواتهم ، وذلك ، فيما يقال، لما أحرزته إيزيس بينهم من نُجح ، فقد كانت حليلة لأخيها أوزيريس ، ونذرت عند موته ألا تتخذ لها بعلا مرة أخرى . ثم ثأرت لمقتل زوجها ، وظلت تحكم بالقسطاس المستقيم . وبالجملة ، فهى سبب ما أصاب الناس أجمعين من نعم عظيمة عديدة . ومن أجل هذه الأسباب عينها ، جرى العرف على أن يكون للملكة من القوة والمجد أكثر مما للملك ، وأن يكون للمرأة بين سواد الناس حق القوامة على زوجها . ويتعهد العروس فى العقد الذى يبرم بشأن المهر أن يكون مطيعاً لعروسه فى جميع الأمور .

وليس بخافٍ علىّ أن فريقاً من المؤرخين يجاهر بأن قبرى هذين الإلهين يوجدان فى نيسا فى بلاد العرب ، ومن هنا دعى ديونيسوس « نيسايوس » وأنه قد أقيم لكل من هذين الإلهين نصب نقشت عليه كتابات بالحروف المقدسة . وقد نقشت على عمود إيزيس العبارة التالية « أنا إيزيس ملكة الأرض كلها ، نشَّأنى هرمس ، ولن يستطيع أحد أن يتحلل مما سننت من شرائع ، أنا الإبنة الكبرى لكرونوس أصغر الآلهة ، أنا زوج الملك أوزيريس وأخته ، أنا أول من كشف للناس عن الغلال ، أنا أمّ الملك

حورس ، أشرق مع الشعرى اليمانية ومن أجلى أنشئت مدينة بوبسطيس ، مرحى ، مرحى يامصر ، يامن ربيتنى» . ويقال إنه نقش على عمود أوزيريس « أبى كرونوس ، أصغر الآلهة أجمعين ، وأنا أوزيريس الملك الذى جاب على رأس جيشه الأرض كلها حتى أقاليم الهند المقفرة ، والمناطق التى تنحدر نحو الشمال حتى منابع نهر الإيستر[1] ثم قفل راجعاً عبر مناطق أخرى حتى وصل إلى المحيط . أنا الابن الأكبر لكرونوس ، وحيث إننى نجمت من بيضة ناصعة شريفة ؛ فقد أصبحت بذرة تضارع النهار منبتاً . وليس فى المعمورة إقليم لم أبلغه مسبغاً على الناس أجمعين الأنعم التى كنت قد اكتشفتها » . ويمكن قراءة هذا القدر فقط فيما يقال ، من النقوش التى على العمودين . أما الباقى وهو الجزء الأكبر منها فقد محته يد الزمان . ولقد تضاربت عند جمهرة الناس الروايات حول هذين الإلهين وذلك لأن الكهنة بعد أن وقفوا على القول الحق فى هذين الإلهين حفظوا السر فى طى الكتمان ولم يشاءوا أن يطلعوا الجمهور على حقيقة الأمر ، بحجة أن الأخطار قد تنتاب كل من عساه أن يطلع العامة على سر هذين الإلهين .

٢٨ — ويقول المصريون إن جاليات كثيرة خرجت من مصر منذ ذلك العهد ، وانتشرت فى جميع أنحاء المعمورة ، فقد قاد بيلوس Belus الذى ظنه الناس ابن بوزيدون Poseidon وليبيا ، جالية إلى بلاد بابل ، وبعد أن أنزلها على شاطىء نهر الفرات ، نصَّب فيها كهنة على نمط كهنة مصر ،

(١) هو نهر الطونة أو الدانوب .

معفين من الضرائب ومن جميع الواجبات العامة ، وهؤلاء الـكهنة ، ويسميهم البابليون الكلدانيين ، يرصدون النجوم مقتفين فى ذلك آثار كهنة مصر ، وهم فلاسفة طبيعيون وفلـكيون . ويضيفون إلى ذلك أن الجالية التى نزحت من مصر أيضا تحت قيادة دناوُس Danaus أسست مدينة أرجوس Argos التى قد تكون أقدم المدن اليونانية. وان الكولخيين Colchi فى بلاد بنطش Pontus واليهود فيما بين بلاد العرب وسوريا جاليتان نزحتا عن مصر واستقرتا هناك ، ذلك بأن هذين الشعبين قد توارثا من قديم الزمن عادة ختان الأطفال عند الولادة ، وهى عادة مأخوذة عن مصر . وهم يدعون أن الأثينيين أيضاً جالية من مدينة سايس Sais فى مصر ، ويحاولون أن يقيموا الدليل على هـذه الصلة . فالأثينيون وحدهم دون سائر اليونان يسمون المدينة « أستى » Asty وهو اسم مأخوذ من مدينة « أستى » فى مصر . ناهيك بأن الجمعية الأثينية خضعت لنفس نظام الطبقات السائد فى مصر . فقد قسمت الأمة إلى ثلاث طبقات : الأولى يدعى أفرادها الأشراف Eupatridae ويتمتعون بأوفى نصيب من التعليم وهم أهل لأسمى التكريم فى أعين الناس ، كما هو الأمر بالنسبة للـكهنة فى مصر . والطبقة الثانية تتكون من ملاك الأرض Geomoroi وقد كان عليهم أن يتزودوا بالعدد وأن يحاربوا من أجل بلادهم ، مثلهم فى ذلك مثل الطبقة التى تدعى فى مصر طبقه المزارعين ، وهى التى تغذى البلاد بالجند . أما الطبقه الثالثة فيندرج تحتها العمال Demurgoi الذين

يقومون بالحرف الآلية ، ويؤدون الأعمال الضرورية للمجموع ، والطبقة التى تقابل هذه عند المصريين ضربت عليها نفس هذه التكاليف .

هذا إلى أن بعض قادة اليونان كانوا من المصريين ، فپتيس Petes[1] مثلاً ، والد مينيسثيوس Menestheus الذى اضطلع بنصيب فى الحرب ضد طرواده ، كان مصريًّا بلا جدال ، وصار فيما بعد مواطناً ثم ملـكاً فى أثينا [ومثل هذا يقال عن كيكروبس Cecrops الذى[2]] كان ثنائى الجسم ، ولم يستطع الأثينيون — لأسباب خاصة — أن يأتوا بالسبب الحقيقى لطبيعته الثنائية هـذه ، مع أنه من فضول القول أنه لما كان ثنائى الوطن ، يونانيا ومصريا فى نفس الوقت ، فقد كان ثنائى الجسم أيضاً ، فنصفه حيوانى والنصف الآخر إنسانى .

٢٩ — وكذلك يدعون أن إرخثيوس Erechtheus وهو مصرى المولد صار ملـكاً على أثينا ، ويقيمون على ذلك براهين كثيرة نقتطف منها ما يلى : لما حدث ذلك الجفاف الشديد الذى يجمعون على وقوعه ، وعم كل أنحاء المعمورة تقريباً فيما عدا مصر لطبيعة أرضها الخاصة ، وأتى على الحبوب وعلى أعداد غفيرة من الناس ، استورد إرخثيوس وقد كان على صلة وثيقة بمصر مقادير وفيرة من القمح من مصر إلى أثينا ، فنصب الأثينيون هذا المنعم الذى لاقوا الخير على يديه ملـكاً عليهم ، ولما ولى

(١) يسميه هوميروس فى الإلياذة ٣ ، ٥٥٢ پيتوس

(٢) العبارة التى بين المعكفين غير واردة فى النص ، ولـكن الوصف ينطبق على كيكروبس أول ملوك أثينا كما جاء فى الأساطير ، وكان نصفه الأسفل فى هيئة ثعبان .

المُلك أدخل طقوس عبادة ديميتير Demeter فى إليوسيس Eleusis واستحدث طريقتها الصوفيه ناقلاً مراسم هذه الطرق من مصر . وقد تواتر القول بأن ديميتير قد تجلت فى أثينا فى ذلك العهد على زعم أن الحبوب التى سميت باسمها قد أدخلت حينذاك . وقد ظن النـاس أن ديميتير اكتشفت فى ذاك الحين البذور كما اكتُشفت أول الأمر . أما الأثينيون فيقرون من ناحيتهم بأنه لما أتى الجفاف على غلتهم فى الحقول فى عهد إرخثيوس ، وقعت ظاهرة تجلى ديميتير بينهم مقترنة بنعمة نضوج القمح ، و يضيفون إلى ذلك أن طقوس عبادة هذه الإلهة وطرقها الصوفية قد أدخلت فى إليوسيس فى ذلك العهد ، وأن الأثينيين والمصريين يتشابهون فى كيفية تقريب الضحايا والقيام بمراسم العبادة التقليدية . و يقولون كذلك أن اليومولپيداى Eumolpidae من سلالة كهنة مصر ، وأن الكيروكيس Ceryces [1] من سلالة حملة النواويس ، وأن الأثينيين وحدهم من بين سائر اليونانيين يحلفون بإيزيس وهم أشبه ما يكونون بالمصريين فى أفكارهم وعاداتهم ، و يأتى المصريون بكثير مما شاكل ذلك من البراهين التى تقوم فيما أرى على النخوة القومية لا على أساس من الحقيقة ، وذلك ليدعموا دعواهم القائلة بأن أثينا مستعمرة مصرية ، يغريهم بذلك بعد صيت هذه المدينة . و بالجملة فالمصريون يدّعون أن أسلافهم قد أنفذوا جاليات عديدة إلى كثير من بقاع المعمورة

(١) اليومولپيداى أى سلالة يومولپوس ، والكيروكيس أي السفراء ، عائلتان من الأشراف فى أثينا وكل إليهما الإشراف على أمور الدين .

وقد كان منشأ هذه الدعوى سببين : رفعة شأن ملوكهم ، وكثرة عدد سكان البلاد . وحيث إنهم لا يقيمون حجة دامغة على صحة دعواهم هـذه ، ولا يشهد مؤرخ ثقة بصحتها ، أرى أن هـذه الروايات ليست جديرة بالتسجيل. ولنكتف بهذا القدر من أساطير المصريين بشأن آلهتهم ، حرصاً منا على تناسق أجزاء قصتنا ، وسنحاول أن نورد باختصار فيما يلى وصف أرض مصر ونيلها وسائر ما هو أهل للذكر فيها .

٣٠ — تمتد مصر بوجه عام من الشمال إلى الجنوب وقد عرفت بأنها تفوق سائر الأقطار كثيراً ، لحسن موقعها وجمال مناظرها ، وتحميها من ناحية الغرب الصحراء الليبية ، التى تموج بالحيوانات المفترسة وتمتد إلى مسافات شاسعة . ولقد كانت قلة مياهها وندرة وجود جميع أنواع الغذاء فيها سبباً فى أن اجتيازها لم يكن مضنياً فحسب ، بل خطراً جداً أيضاً . أما من ناحية الجنوب ، فتحميها شلالات النيل والجبال المتصلة بها . إذ من المتعذر الملاحة فى النهر أو سلوك الطريق البرى من بلاد التروجوديتيس [1] Trogodytes فى أقاصى بلاد الحبشة وهى مسافة ٥٥٠٠ ستاد ، إلا إذا كان المرء مزوداً بعتاد ملكى أو ركب بالغ الفخامة . أما المناطق التى تقع فى الجبهة الشرقية فيحمى بعضها النهر ، وتحيط بالبعض الآخر الصحراء ، والأرض ذات المستنقعات التى تسمى « الجب » Barathra ذلك بأنه توجد فيما بين

(١) تروجوديتيس أى سكان الكهوف وقد عرفهم سترابون ١ ، ٢ ، ٣٤ بقوله « قبيلة من الأعراب تعيش على ساحل البحر الأحمر فيما يلى مصر والحبشة » .

فلسطين ومصر بحيرة ضيقة جداً ولكنها عميقة للغاية وطولها حوالى ٢٠٠ ستاد تدعى بحيرة سربونيس Serbonis[1] يكمن فيها الخطر لكل من يجوب هذه المنطقة دون سابق معرفة بها ، فعرض الماء فيها ضئيل كالشريط ، وتحيط بها الكثبان الرملية من جميع الجهات . وعندما يطّرد هبوب الرياح الجنوبية ، تغطى سطح المـاء بكميات كبيرة من الرمال ، وهذه تخفى تحتها سطح الماء وتجعل شكل البحيرة مشابهاً للأرض اليابسة المحيطة بها ، بحيث لا يمكن تمييزها مطلقاً . ولذلك باد الكثيرون من غير العارفين بطبيعة هذا الأقليم ، مع جيوش بأسرها ، كلما حادوا عن الطريق المطروقة ، ذلك أن الرمال حينما يسير عليها الناس ، تنهار من تحتهم بالتدريج وتخدع عابرها فى شيء من المكر السيئ ، حتى إذا ما استشعروا الخطر المحدق ، أخذوا فى شد أزر بعضهم ولات ساعة نكوص أو هرب . فكل من تقتنصه هـذه اللجة لا يستطيع العوم لأن الوحل يعوق حركة الجسم ، ولا هو يستطيع أن يخوض فيها وليس لقدميه منها متكأ ركين ، فالرمال كما ترى قد امتزجت بالماء ، وأخذ كل من طبيعة الآخر ، وهكذا أصبحت هـذه المنطقة غير صالحة للسير أو الملاحة . ولذلك فكل من يرتاد هـذه البقعة يهبط إلى أعماقها ولا يجد ما يتشبث به ليعينه على النجاة ، لأن الرمال على الحوافى تنهار بمن يتعلق بها ، وقد أطلق على هذه السهول اسم مناسب لطبيعتها التى وصفنا ، إذ سميت « الجب » .

(١) تسمى الآن بردويل نسبة إلى بلدوين ملك بيت المقدس الذى مات فيها فى الحروب الصليبية سنة ١١١٨ .

٣١ – الآن وقد وصفنا المناطق الثلاث التى تحمى مصر من البر ، بقى أن نضيف إليها وصف الجهة الباقية فالجهة الرابعة التى يلاطمها الموج على طول الساحل كله تقريباً دون مرفأ ما يحميها « البحر المصرى »[1] إذ الملاحة على طول هذا الشاطىء طويلة مضنية ، والرسو عليه متعذر للغاية . فلا يوجد فيما بين پرايتونيوم Paraetonium فى ليبيا و إيوپى Iope[2] فى فلسطين وهى مسافة بحذاء الشاطىء طولها حوالى ٥٠٠٠ ستاد تقريباً ، ميناء واحد صالح لرسو السفن سوى ميناء فاروس Pharos . و بغض النظر عن هذه الاعتبارات ، فإن شريطاً من الرمل يمتد على طول الساحل المصرى لا يمكن رؤيته لغير الملاح المحنك . ولذلك نرى المسافرين الذين يتوهمون أنهم قد نجوا من أخطار البحر و يندفعون نحو الشاطىء فى غفلتهم متهللين يجدون سفينتهم وقد ارتطمت باليابسة بغتة فتحطمت و يفجعون فيها . و يحدث أحياناً ألا يستطيع بعض الملاحين تمييز هذا الشاطىء الواطىء فتتحطم السفينة على غرة منهم ، إما فى منطقة مستنقعات ذات برك آسنة ، و إما على بقعة جرداء .

فمصر إذن محصنة تحصيناً طبيعياً من جميع الجهات كما أسلفنا القول ، وهى مستطيلة الشكل ، طول شاطئها ٢٠٠٠ ستاد وتمتد من الداخل حوالى ٦٠٠٠ ستاد ، وقديماً كانت تبز سائر أرجاء المعمورة جداً فى كثافة

(١) يعنى البحر المتوسط فى المنطقة التى يلامس فيها شواطىء مصر

(٢) هى يافا الآن .

السكان ، أما فى عصرنا هذا فالشائع أنها لا تقصر عن أبها فى هذا المضمار . وكان فيها فى العصر القديم ما يزيد على ١٨٠٠٠ مدينة وقرية ذات شأن كما ثبت فى الوثائق المقدسة ، أما فى عصر بطلميوس بن لاجوس [١] فقد عُدَّ منها أكثر من ٣٠٠٠٠ [٢] ما زال أكثرها مزدهراً إلى وقتنا هذا .

ويقال إن تعداد السكان فى العصر القديم كان حوالى ٧ مليون نفساً وهو يقل عن ذلك فى أيامنا هـذه . ويرجع الفضل إذن إلى كثرة الأيدى العاملة فيما يحكى من أن الملوك القدماء قد ابتنوا منشآت عظيمة باهرة قامت شاهداً خالداً على مجدهم . وسنورد بعد قليل وصفاً دقيقاً لها ، أما الآن فسنتكلم عن طبيعة نهر النيل ومميزات البلاد الطبيعية .

٣٢ — يجرى النيل من الجنوب إلى الشمال ، وينبع من بقعة لم ترها عينان ، لأنها فى أقاصى الحبشة فى منطقة لا يمكن لشدة حرارتها أن تطأها قدمان . وهو أكبر الأنهار قاطبة ، وينحنى انحناءآت شديدة فى طريقه مخترقاً هـذه الرقعة الطويلة من الأرض . فينحرف مرة ناحية بلاد العرب شرقاً ، ومرة ناحية ليبيا غرباً ، وطول مجراه من جبال الحبشة إلى مصبه فى البحر بما فى ذلك منحنياته حوالى ١٢٠٠٠ ستاد . ويصغر حجم

(١) هو بطلميوس الأول ، حكم مصر من سنة ٣٢٣ — ٢٨٥ ق . م . وقد زار مصر فى عهده المؤرخ هيكاتيوس ، فلعل ديودور قد نقل عنه ما أثبت من إحصاءات .

(٢) قال هيرودوت ٢ ، ١٧٧ إن عـدد المدن المصرية فى عهد أمازيس (القرن السادس ق . م) كان عشرين ألف مدينة . فلعل ديودور قد أضاف إليهـا القرى الشهيرة .

حوض النهر الجنوبى باطراد لانسياب الماء إلى كلتا القارتين [١] ، ويتفرع عن النهر فروع عديدة يتجه بعضها نحو ليبيا وهذه تتشربها الرمال البعيدة الغور ، ويجرى البعض الآخر فى الناحية المضادة نحو بلاد العرب ، وهذه تتحول إلى مستنقعات واسعة و بحيرات عظيمة تعيش حولها قبائل عديدة . ويكون عرض النهر عند ما يدخل البلاد المصرية ١٠ ستاد ، ويكون أحياناً أقل من ذلك عرضا . ولا يجرى فى طريق مستقيمة ، بل ينحنى شتى الانحناءات ، فينحرف ساعة نحو الشرق ، وساعة نحو الغرب ، وأحياناً ينكفىء نحو الجنوب فى اتجاه مضاد لاتجاه مجراه الأصلى تماماً . ذلك أن المرتفعات تمتد على جانبى النهر ، وتغطى جزءاً كبيراً من ضفتيه ، وتتخللها ممرات ووديان صخرية ضيقة . فعند ما يصطدم النهر بهذه المرتفعات ، ينكفىء بسرعة إلى الوراء فى الأرض المنبسطة ، و بعد أن يجرى شوطاً طويلاً إلى الجنوب ، يعود ثانية إلى مجراه الأصلى . ولقد كانت هـذه المميزات التى ينفرد بها النيل دون سائر الأنهار سبباً فى أنه النهر الوحيد الذى ينساب فى مجراه دون ما عنف أو موج دافق ، اللّهم إلا فى المنطقة التى تسمى الشلالات . ففى هـذه المنطقة — وطولها حوالى عشرة ستاد — ينحدر النهر انحداراً شديداً ، وتحده من الجانبين صخور عالية تجعل منه برزخاً ضيقاً ، وهى مليئة بالنتوءات والشقوق ، وفيها كثير من الصخور الملساء الضخمة وكأنها قلل الجبال . ويتكسر الماء على هذه الصخور ، وتدفعه هذه العوائق بشدة

(١) كان الجغرافيون المتقدمون يجعلون من النيل الحد الفاصل بين آسيا وأفريقية .

إلى الوراء فى اتجاه مضاد لاتجاهه الأصلى ، فتكون فى النهر دوامات كبيرة ، يمتلىء مركزها بالزبد ، وهى نتيجة اندفاع الماء إلى الوراء . وتلقى هذه الدوامات فى قلوب مرتادى هذه البقاع روعة بالغة . والواقع أن تيار النهر سريع وقوى إلى حد أنه يبدو كالسهم المنطلق . وفى أثناء الفيضان حيثما تختفى هذه الصخور تحت سطح الماء ، ويغمر فيض المياه الزاخر كل هذه المنطقة الصخرية ، ينحدر بعض الملاحين على الشلالات عندما تهب الرياح مضادة لهم . ولكن لا يمكن لأحد أن يصعّد فى النهر عبر الشلالات لأن قوة تدفق الماء تعلو على كل مجهود إنسانى . وهناك شلالات أخرى كثيرة ولكن أكبرها ما يقع على الحدود بين الحبشة ومصر .

٣٣ — ويضم النيل بين مياهه أيضاً جزراً عديدة ، كثير منها فى الحبشة ، إحداها عظيمة الاتساع ، وتسمى مروى Meroë ، فيها مدينة شهيرة تسمى باسم الجزيرة ، وقد انشأها قمبيز وأطلق عليها اسم أمه مروى Meroë ، وشكل هذه الجزيرة فيما يقال مثل الدرع الطويلة ، وتفوق سائر جزائر هذه البقاع حجماً بكثير ، فطولها ٣٠٠٠ ستاد ، وعرضها ١٠٠٠ ستاد . وبها كثير من المدن أشهرها مروى . وتجثم كثبان رملية ممتلئة على طول ساحل الجزيرة المواجه لليبيا الذى تتكسر عليه أمواج النهر ، أما الساحل المواجه لبلاد العرب فتعلوه صخور عاتية . وبالجزيرة مناجم ذهب وفضة وحديد ونحاس ، هذا إلى كميات وفيرة من خشب الآبنوس وشتى أنواع الأحجار الكريمة . وبالجملة ، فالنهر يكوّن جزراً كثيرة إلى

حد يشكك السامع فى صدق ما يروى عن عددها . فبغض النظر عن الأرض التى يحيط بها النيل فى المنطقة التى تسمى « الدلتا » يوجد أكثر من سبعمائة جزيرة يفلح بعضها الأحباش ، وتزرع أذرة عويجة ، ويكثر فى البعض الآخر الحيات والنسانيس وسائر أنواع الحيوان ، فهى لذلك غير صالحة لسكنى الإنسان .

وعندما يتفرع النيل فى مجراه فى مصر إلى فروع كثيرة يكوّن المنطقة التى تسمى نسبة إلى شكلها « بالدلتا » (المثلث) ، أما ضلعاه فالفرعان المتطرفان ، بينما يكوّن قاعدته البحر الذى يبتلع مياه النهر من مصباته العديدة . فالنيل يصب فى البحر من فروع سبعة ، أولها من الشرق الفرع البيلوزى والثانى التانيتى ثم المنديسى ثم الفاتنيتى ثم السِبِنيتى ، ثم البولبيتى وأخيراً الفرع الكانوبى ويسميه البعض الفرع الهرقلى (١) . وهناك مصبات أخرى صناعية ولكن ليس بنا من حاجة إلى ذكرها . وتقوم على رأس كل من هذه المصبات مدينة مسوّرة يشطرها النهر شطرين ، وتمتد منها على جانبى المصب قنطرتان ، وقلاع فى مواقع صالحة .

وتخرج من الفرع البيلوزى قناة صناعية تصل إلى الخليج العربى والبحر الأحمر ، وأول من قام بهذا العمل نيخو (٢) بن بسماتيك ، ثم تلاه دارا

(١) سمى هيرودوت ٣ ، ١٧ الفرع التانيسى بالفرع السايسى والفرع الفاتنيتى بالفرع البوكولى ، وقد يكون هذا هو فرع دمياط الآن . أما الفرع البولبيتى فهو فرع رشيد .

(٢) حكم نيخو مصر من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٥٩٣ ق . م . وحكمها دارا من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق . م .

الفارس الذى سار فى هذا المشروع شوطاً بعيداً ثم تركه ولم يتمه ، فقد حذره بعضهم بأنه إذا أتم حفر القناة إلى الخليج فإنه يكون سبباً فى إغراق مصر ، فقد أوهموه أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من مستوى سطح مصر(١) . وقد أتم بطليموس حفر القناة فى عصر متأخر ، وأقام عليها فى أكثر المواضع صلاحية هويساً فريدا فى نوعه ، يفتحه كلما أراد المرور ثم يغلقه بعد ذلك مباشرة ، وقد تمت هذه العملية بنجاح. ويسمى فرع النهر الذى ينساب فى هذه القناة باسم حافرها بطليموس وتقع على رأسها مدينة تدعى أرسنوى Arsinoë .

٣٤ — وتشبه الدلتا جزيرة صقلية فى الشكل ، وطول كل من ضلعيها ٧٥٠ ستاد وقاعدتها التى يحف بها البحر طولها ١٣٠٠ ستاد ، ويخترقها كثير من القنوات الصناعية ، وهى تشمل أخصب أراضى مصر. ولما كانت تربتها طمية وسهلة الرى ، فهى تنتج محصولات وفيرة من جميع الأصناف . فالنهر يلقى عليها فى فيضانه السنوى بغرين جديد ، ويسهل على سكانها رى مساحتها كلها بوساطة الاختراع الذى استحدثه أرخميديس السيراكيوزى ، ويسمى نسبة إلى شكله بالحلزون(٢) .

(١) هذه القناة وهى قناة السويس ، تتفرع على النيل شمالى بوباسطيس ثم تسير فى وادى الطميلات إلى البحيرات المرة ، ثم تنحدر إلى الجنوب وتتصل بالبحر الأحمر. ويرى فريق من المؤرخين أنها ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة .

(٢) يعنى الطنبور .

ولما كان تيار النيل هيناً ، وكان النهر يحمل مقداراً كبيراً من جميع أنواع التربة ، ويجمع من الأراضى الواطئة بركاً ، فقد تكونت بذلك مستنقعات شديدة الخصوبة تنمو فيها النباتات ذات السيقان المختلفة الطعم ، والفاكهة والخضروات التى لا تنمو فى غير هذه البلاد . وكلها ينمو بكثرة تسد حاجة المعوز والمريض . وهى لا تمدهم بغذاء مختلف الألوان دانى القطوف وافر لكل من يحتاج إليه فحسب ، بل يقوم عليها كذلك غير قليل من ضرورات الحياة . فالبشنين مثلا ، الذى ينمو فيها بكثرة ، يصنع منه المصريون خبزهم الذى يقيمون به أودهم . وينمو فيها كذلك القيبوريوم(١) بوفرة ، وهو يثمر الحبوب المعروفة بالباقلى القبطى . وفيها كذلك أنواع أخرى كثيرة من الأشجار ، منها « الفارسية »(٢) التى استوردها الفرس من الحبشة عندما غزاها قمبيز وفاكهتها حلوة المذاق جداً . أما شجر الجميز فيثمر نوع منه التوت ، ويثمر نوع آخر فاكهة تشبه التين ، وهذه مثمرة على مدار السنة ، ويجد فيها الفقراء ملاذاً سهلا من عوزهم . أما الفاكهة المسماة بالتوت البرى فتقطف أيام التحاريق ، وهم يتخذونها عُقْبة للذيذ مذاقها .

ويستخرج المصريون من الشعير شراباً لا يقل عن النبيذ نكهة ، يسمونه زيثوس Zythos (جعة) ، ولا يستخدمون فى إيقاد مصابيحهم زيت الزيتون ، بل زيتاً مستخرجاً من نبات يسمى كيكى Kiki (زيت الخروع) ،

(١) القيبوريوم ثمرة الباقلى القبطى Nymphaea Nelumbo

(٢) شجرة اللبخ .

وينمو فى مصر بوفرة كثير من النباتات الأخرى التى تفى بحاجات الإنسان الضرورية ، ولكن يطول بنا القول لو تحدثنا عنها .

٣٥ — وهناك نوعان متميزان عن سائر الحيوانات الغريبة الشكل التى تعيش فى النيل ، هما التمساح وفرس البحر . أما التمساح فبعد أن يكون صغيراً جداً يكبر إلى أن يصبح ضخماً للغاية . فبيضته فى حجم بيض الأوز وبعد أن يفقس يكبر إلى أن يبلغ طول التمساح ست عشرة ذراعاً . وهو يعمر كالإنسان ، وليس له لسان [1] . وقد عملت الطبيعة على حماية جسمه بمهارة فائقة ، فجسمه كله مكسو بقشر شديد الصلابة ، وزوّد فكاه بأسنان عديدة ، وله نابان أكبر حجماً بكثير من الأسنان . ولا يأكل لحم الإنسان فحسب ، بل لحم كل ما يقرب النهر من دواب الأرض . وهو قوى العضة خطرها ، ويصيب بجراح بالغة إذا أنشب مخالبه ، ولا يمكن مداواة الجسم فى موضع عضته . وكان المصريون يصيدونه فى غابر الأزمان بالشص وقد علقت بها قطعة من لحم الخنزير . ولكنهم عدلوا عنها من قديم الزمن إلى الشباك المتينة يصيدونه بها كما يصيدون بعض أنواع الأسماك . ويصيدونها أحياناً من قواربهم بسهام حديدية يوالون إطلاقها على رؤوسها . وهناك عدد لا يحصى من التماسيح فى النهر وفى البحيرات المتاخمة له إذ أنها كثيرة التوالد وقلما يقتلها الناس ، والعرف الذى جرى عليه أكثر أهل البلاد هو أن يعبدوا التمساح كإله ، وحيث إن لحمه لا يؤكل فإن صيده عديم الجدوى

(١) للتمساح لسان صغير جداً .

تماماً للأجانب . ولما كان فى تكاثره ضرر بالإنسان ، فقد جاءت الطبيعة بعلاج ناجع فى ذلك ، فالحيوان الذى يسمونه إخنيومون Ichneumon (النمس) يروح مهشماً البيض الذى يضعه التمساح على حافة النهر ، ومما يدعو إلى أشد العجب ، أن النمس ، وهو لا يأكل هذا البيض ولا يستفيد منه فى أى وجه ، يثابر على أداء هذه الخدمة الطبيعية والضرورية لخير الإنسان .

أما الحيوان المسمى « بفرس البحر » فلا يقل طوله عن خمس أذرع ، وله حوافر مشقوقة كحوافر الثور ، وله ثلاثة أنياب على كلا الجانبين وهى أكبر من أنياب الخنزير البرى ، أما أذناه وذيله فتشبه آذان الخيول وذيولها وصوته يحاكى صهيل الفرس ، ويماثل جسمه بوجه عام جسم الفيل ، وجلده أخشن من جلود سائر الحيوان . ولما كان فرس البحر حيواناً بحرياً وبرياً على السواء ، وهو يقضى نهاره فى الماء غائصاً فى أعماقه ، أما الليل فيقضيه على الأرض ، يرعى القمح والتبن ، فلو أنه كان كثير التوالد ، يلد كل عام ، لأتى على حقول مصر كلها . ويجتمع لصيده جمهرة من الرجال ، يقذفونه بحراب حديدية . فعندما تقع عليه أعينهم ، يلتفون حوله بقواربهم ويصيبونه بجروح عديدة بآلة حادة كالأزميل مثبتة فى حربة حديدية . ثم يربطون أحد هذه الحراب المغروسة فى جسمه بطرف حبل ، ثم يرخون له من الحبل وينتظرون إلى أن تنهك قواه لكثرة ما ينزف من دم . ولحمه خشن عسر الهضم ، وليس من أعضائه الداخلية ما يؤكل ، سواء فى ذلك الأحشاء [1] والمصارين .

(١) يعنى بالأحشاء القلب والكبد والرئتين والكليتين .

٣٦ — وفى النيل بجانب ما ذكرنا من حيوان أعداد لا تحصى من مختلف أنواع الأسماك ، فهو لا يمد السكان بكميات وفيرة من الأسماك الطازجة فحسب ، بل لهم منه معين لا ينضب للتمليح . وبالجملة ، يفوق النيل سائر أنهار العالم فى منفعته للانسان . فهو يبدأ فى الارتفاع فى الانقلاب الصيفى ويظل فى زيادة مطردة إلى زمن الاعتدال الخريفى ويجلب الطمى الحديث طوال هذه الفترة ، ليخصب الأرض البور ، وحقول الحبوب ، وبساتين الأشجار زمناً يتوقف طوله على مشيئة الزراع . ذلك أن مياه النهر تنساب بلطف ، ففى استطاعتهم أن يوجهوها إلى حقولهم بوساطة سدود منخفضة ثم يخلون لها السبيل بسهولة بقطع هذه السدود كلما عنت لهم فى ذلك فائدة . وفى الحق جعل النيل الزراعة سهلة ميسرة إلى حد أن الفلاحين يستريحون من عملهم فى انتظار جفاف الأرض ، وبعد بذر الحب يستخدمون ماشيتهم فى غرسه فى الأرض ، ثم يعودون إلى الأرض بعد أربعة أو خمسة أشهر للحصاد . ويستعمل بعض الزراع محاريث خفيفة لحرث أديم الأرض بعد ريها ، وبعد لأى ما يجمعون حصادهم أكداساً بقليل من النفقات والمشقة . فعند سائر الشعوب تحتاج جميع الأعمال الزراعية على العموم إلى مشقة كبيرة وتكاليف باهظة ، وفى مصر وحدها لا تتطلب هذه الأعمال سوى مجهود تافه وتكاليف ضئيلة . والكروم ، وهى تروى بنفس الطريقة ، تدر كميات وفيرة من النبيذ لزارعيها . أما الذين يتركون الأرض بعد جفافها مرعى لماشيتهم فيجنون ثمار ذلك ، لأن

الماشية تلد نظراً لخصوبة المرعى مرتين فى العام ، وتجز أصوافها مرتين كذلك .

وتبدو ظاهرة فيضان النيل غريبة للذين يرونها رأى العين ، وهى أمر غير معقول عند من تصلهم عن طريق السماع فحسب . فبينما تبدأ كل أنهار العالم فى الهبوط فى الانقلاب الصيفى وثم تأخذ فى الارتفاع باطراد طوال فترة الصيف التالية ، يبدأ نهر النيل وحده فى الارتفاع فى ذلك الوقت ويزيد يوماً بعد يوم إلى أن يغمر فى النهاية كل مصر تقريباً . وكذلك يسلك فيما بعد أسلوباً عكسياً فيأخذ فى النقصان يوماً بعد يوم لمدة تضاهى مدة الفيضان ، حتى يعود إلى منسوبه الأصلى . ولما كانت الأرض سهلا مستوياً ، والمدن والقرى والمساكن الريفية قائمة على تلاع صناعية ، فإن منظرها يصبح حينئذ مشابهاً لجزر السيكلاديس[1] Cyclades . أما الحيوانات الأرضية المفترسة فيقضى النهر على معظمها ويغرقها بمياهه ، وبعضها ينجو بحياته بلجوئه إلى المرتفعات . أما الماشية فَتُعْلَفُ إبان الفيضان فى القرى والمساكن الريفية حيث يخزن لها العلف من قبل . أما عامة الشعب فتجنح طوال وقت الفيضان — وقد ارتفع عنها عبء العمل — إلى اللهو ، فتجعل من أيامها كلها أعياداً وتتمتع ولا حرج بكل أسباب السرور .

ولقد كان ما يعلق على ارتفاع النيل من الأهمية حافزاً للملوك إلى إقامة « مقياس النيل » فى منف ، وعهد فى إدارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط ، وينفذون الرسائل إلى المدن يبلغون الناس فيها مقدار ارتفاع النهر

(١) مجموعة من الجزائر الصغيرة تحيط بجزيرة ديلوس .

بالأذرع ، وميقات انخفاضه بالضبط . وحينما يعلم الشعب بهذه الطريقة أن النهر توقف عن الارتفاع ، وأخذ فى الهبوط ، يذهب عنه انزعاجه ، ويعرف سلفاً مقـدار المحصول القادم بالضبط ، ذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم فى ذلك الأمر مدى حقب طويلة .

٣٧ — ولما كان فيضان النيل ظاهرة مستعصية التفسير ، فقد أخذ الكثيرون من الفلاسفة والمؤرخين على عاتقهم مهمة تعليلها ، وسأتحدث عن ذلك باختصار ، فلا نستطرد استطراداً طويلا ، ولا نهمل إثبات أمر يتوق الناس كلهم إلى معرفته . وبالجملة فمشكلات فيضان النيل ، ومنابعه وصبه فى البحر ، وسائر هذه المميزات التى انفرد بها النيل — أكبر أنهار المعمورة — عن بقية الأنهر ، قد تركها بعض المؤرخين دون أن يجرؤوا على أن يقطعوا فيها برأى ، فى حين أنهم يسترسلون أحياناً فى القول عن بعض الأمطار الشتوية وغيرها . وانبرى البعض الآخر للتحدث عن هذه المسائل ولكنهم حادوا كثيراً عن جادة الصواب . فقد لجأ هيلانيكوس Hellanicus وكادموس Cadmus مثلا ، وكذلك هيكاتيوس Hecataeus ومن لف لفهم من الكتاب — وكلهم ينتمون إلى المدرسة القديمة[1] —

(١) المدرسة القديمة هى طبقة الكتاب الذين عنوا بكتابة التاريخ نثراً وقد أولوا الأساطير اهتماماً كبيراً ولم يكن لهم نصيب كبير من ملكة النقد . هيلانيكوس اللسبى ولد سنة ٤٨٠ وعاش حوالى ٨٥ سنة ، وهو أول من قوم تاريخ بلاد اليونان . كادموس الملطى لا يعرف عنه شىء على وجه التحقيق . هيكاتيوس الملطى ولد سنة ٥٥٠ ق . م وزار مصر حوالى عام ٥٢٦ ق م. وقد ألف كتابين أحدهما فى وصف العالم ، والآخر فى الأساطير اليونانية ومات حوالى سنة ٤٧٦ ق . م

إلى التعليلات الخرافية . أما هيرودوت ، وقد كان باحثاً مدققاً للغاية ، وواسع المعرفة بالتاريخ ، فقد حاول حقاً تفسير هذه الظاهرة . ولكن نظرياته — كما ثبت الآن — متناقضة . وأحجم كزينوفون Xenophon وثوكيديديس Thucidides اللذان نالا إعجاب الناس لدقة رواياتهما عن وصف أرض مصر كلية . أما إيفوروس Ephorus وثيوبومبوس Theopompus[1] اللذان أوليا هذه المسائل كل عنايتهما ، فقد كانا أقل الكتاب إصابة لمحجة الصواب . ولا ترجع خيبة هؤلاء الكتاب أجمعين إلى الإهمال بل إلى خصائص هذه البلاد الفريدة . فمنذ أقدم العصور إلى عهد بطليموس الملقب بفيلادلفوس[2] ، لم تطأ قدما يونانى واحد بلاد الحبشة ، بل لم يبلغ أحد منهم حدود مصر الجنوبية ، فكل هذه المناطق لم تكن معروفة للأجانب وكانت خطرة للغاية . والملك السالف الذكر هو أول من أرسل جيشاً من اليونانيين لغزو بلاد الحبشة ، ومنذ ذلك الحين تصلنا معلومات أكثر دقة عن هذه البلاد .

هذه إذن أسباب جهل المؤرخين المتقدمين . أما عن منابع النيل ، والمنطقة التى ينبثق منها النهر ، فلم يدع أحد حتى كتابة هذه السطور رؤيتها ، لا ولم يورد أحد وصفاً لها عن لسان قوم ادعوا رؤيتها . وهكذا

(١) ثيوبومبوس الخيوى ولد سنة ٣٨٠ ق . م . ألف كتاباً فى تاريخ اليونان أكمل به تاريخ ثوكيديديس إلى عام ٣٩٤ ق . م وكتاباً فى تاريخ فيليب المقدونى .

(٢) هو بطليموس الثانى حكم مصر من سنة ٢٨٥ — ٢٤٦ ق م . تزوج بأخته أرسنوى وسمى بعد موته فيلادلفوس أى « المحب لأخته » .

ما برحت هذه المسألة مجالا للتخمين والتكهن . ويذهب كهنة المصريين إلى أن النيل يستمد مياهه من الأوقيانوس الذى يحيط بالمعمورة ، ولكن لا نصيب لقولهم هذا من الصحة . فهم يحلون مشكلة بمشكلة أخرى ، ويزجون بمثابة برهان حُجّة تفتقر فى ذاتها إلى برهان دامغ . وتقول طائفة من التروجوديتيس Trogodytes وهى التى نزحت من المنطقة الداخلية لشدة حرارتها وتسمى قبيلة البولچيين Bolgii ، أن هناك من الظواهر ما يشير إلى أن أنهاراً كثيرة تلتقى فى مكان واحد وتكون مجرى النيل ، وأن هذا هو السبب فى أنه أكثر الأنهار المعروفة إخصاباً . ويميل المرء إلى الركون إلى قول سكان الجزيرة المعروفة بمروى Meroë لأنهم أبعد ما يكونون عن التماس عللٍ تناسب ما يتصورون من فروض ، ولأنهم كذلك أقرب الناس إلى هذه المنطقة موضوع بحثنا . ولكنهم فضلا عن أنهم لا يقطعون برأى فى هذه المسائل ، سموا النهر أستابوس Astapus ومعناها فى اليونانية « مياه من الظلام » ، مطلقين عليه اسماً يتفق مع ما يعوزهم من دقة ملاحظة هذه البقاع وشدة جهلهم بها . والرأى عندنا أن أقرب التعليلات إلى الحقيقة أبعدها عن التكهنات . ولست بجاهل أن هيرودوت (١) فى تفرقته بين ليبيا التى تقع إلى الشرق من النهر وليبيا التى تقع فى غربيه ، عزا إلى القبائل الليبية المعروفة بالنسامونيين (٢) Nasamones البحث عن مصدر النهر ، وقال إن النيل ينبع من إحدى

(١) هيرودوت ٢ ، ٣٢.

(٢) قبائل رحل تعيش حول خليج سدرة فى شمالى أفريقية .

البحيرات ثم يسير مسافة طويلة جداً فى الأرض الحبشية ، ولكن لا يمكن أن نثق لأول وهلة بقول الليبيين ، ولو كان ما قالوه صدقاً ، ولا بقول مؤرخ تفتقر روايته إلى برهان .

٣٨ — والآن بعد أن تكلمنا عن منابع النهر ومجراه ، سنحاول أن نورد أسباب فيضانه . يقول طاليس Thales (١) ، وهو أحد الحكماء السبعة ، إن الرياح التجارية تهب فى اتجاه مضاد لمصب النهر . فتمنعه من أن يصب فى البحر ، وإن هذا هو السبب فى ارتفاع النهر ، وفيضانه على أرض مصر وهى سهل منخفض . ولكن ، بالرغم من وجاهة هذا التفسير ، فمن السهل إظهار بطلانه ، فلو أن هذا التعليل كان صحيحاً لفاضت للأسباب عينها كل الأنهار التى تواجه الرياح التجارية مصباتها . وحيث إن هذا لا يحدث فى أى جزء من المعمورة ، فيجب أن نولى وجهنا ناحية أخرى بحثاً وراء السبب الحقيقى للفيضان . ويذهب الفيلسوف الطبيعى أناكساجوراس Anaxagoras إلى أن سبب الفيضان هو ذوبان الثلوج فى الحبشة ، وقد شايعه فى رأيه هذا تلميذه الشاعر يوريبيديس Euripides حيث يقول :

« لقد هجر أطيب أمواه الأرض

« النيل الذى ينبثق فائضاً من أرض الأحباش ذوى البشرة السوداء

« كلما ذابت الثلوج . .

(١) طاليس الفيلسوف الأيونى عاش فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

والواقع أن هذا التفسير لا يحتاج إلى كبير عناء لتفنيده ، فمن الجلى أن سقوط الثلوج فى الحبشة أمر مستحيل لشدة الحرارة هناك . وعلى العموم ، فليس فى هذه البقاع جليد أو بردٌ أو أى علامة من علامات الشتاء وخصوصاً فى وقت فيضان النيل . وحتى إذا سلمنا بأن هناك ثلوجاً متراكمة فوق مرتفعات بلاد الحبشة ، فالدليل ما زال قائماً على بطلان هذا التعليل ، إذ من المسلم به أن كل الأنهار التى تصدر عن ذوبان الثلوج تثير تيارات باردة من الهواء ، وتكوِّن ضباباً ، والنيل هو النهر الوحيد الذى لا تعلوه الغيوم الكثيفة ، ولا الرياح الباردة ولا الضباب .

أما هيرودوت[1] فيقول إن منسوب النيل الطبيعى هو ذلك الذى يبلغه أيام الفيضان . ولكن يحدث فى الشتاء أن الشمس عند ما تسامت الصحراء الليبية ، تبخِّر كثيراً من مياه النهر فيقل ارتفاعه عن منسوبه الطبيعى . وعند ما يأتى الصيف ، وتنتقل الشمس فى مدارها إلى الشمال ، تجفف وتقلل مياه أنهار بلاد اليونان وسائر الأقطار التى تناظرها موقعاً[2] وإذن فظاهرة فيضان النيل فى رأيه لا تدعو إلى العجب ، لأن النهر لا يرتفع فى حرارة الصيف ، بل ينخفض فى الشتاء للسبب المتقدم . وينبغى لنا الآن أن نقول رداً على هيرودوت أنه كما أن الشمس تبخر فى الشتاء مياه النيل ، يتحتم أن تبخر مياه أنهار ليبيا كذلك ، وتخفض من منسوبها .

(١) هيرودوت ٢ ، ٢٥ .

(٢) أى التى تقع على نفس خط العرض الذى تقع عليه بلاد اليونان .

ولما كانت هذه الظاهرة لم تلاحظ فى أى مكان فى ليبيا ، فمن الجلى إذن أن مؤرخنا يلقى الكلام على عواهنه ، هذا إلى أن فيضان أنهار بلاد اليونان فى الشتاء لا يرجع إلى بعد الشمس عنها ، بل إلى كثرة هطول الأمطار فى هذا الموسم .

٣٩ — يقول ديموقريطس الأبدرى[1] إن الثلوج لا تكسو المناطق الجنوبية كما يدّعى يوريبيديس وأناكساجوراس ، بل المناطق الشمالية كما هو واضح لكافة الناس . وإن أكداس الثلج المتراكمة فى الشمال تظل متجمدة إبّان الانقلاب الشتائى . أما فى الصيف فتفتت الحرارة الثلوج فتصير كلها فى حالة ذوبان . وهذه تكوِّن سحاباً كثيفاً فى المناطق الأكثر ارتفاعاً ، حيث يصعد البخار بكثرة ، وهذا السحاب تحمله — كما يقول — الرياح التجارية إلى أن يلاقى أعلى جبال العالم ، وهى جبال الحبشة فى زعمه ، وهنا حين يصطدم السحاب بقوة بهذه الجبال يسقط أمطاراً غزيرة ، وهى التى تسبب فى رأيه فيضان النيل ، فى موسم الرياح التجارية بالضبط .

من السهل دحض هذه النظرية كذلك بمراجعة ميقات الفيضان بالدقه ، فالنيل يبدأ فى الارتفاع فى الانقلاب الصيفى قبل أن تبدأ الرياح التجارية فى هبوبها ، ويأخذ فى الانخفاض بعد الاعتدال الخريفى ، بعد

(١) معاصر لسقراط وهو أول من ألف من اليونانيين الموسوعات ، وصاحب النظرية الذرية .

أن يتوقف هبوب هذه الرياح بكثير . فإذا تحطمت النظرية المعقولة أمام الحقائق الدقيقة المستقاة من التجربة ، وجب علينا مع اعترافنا بنبوغ الفيلسوف أن نحجم عن الأخذ برأيه . وإنى أذكر عرضاً حقيقة أخرى تلك هى أن الرياح التجارية كما ترى ، تهب من الغرب كما تهب من الشمال ذلك أن ما يسمى بالرياح التجارية ليس الرياح الشمالية فحسب أى البورياس والأباركتياس بل الرياح الشمالية الغربية كذلك التى تهب من موضع غروب الشمس صيفاً[1] ، وكذلك ما يقرره من أن جبال الحبشة هى فى الواقع أعلى جبال العالم ، لا يفتقر إلى دليل فحسب ، بل هو أيضاً ليس أهلاً لما يجدر بالحقيقة الملموسة من تصديق[2] .

ويتحفنا إيفورس Ephorus بأطرف التفسيرات ، ولكنه فى سعيه وراء الحجج المقبولة فى روايته ، يخطىء محجة الصواب كلية . يقول إيفورس إن تربة مصر كلها طمبية ومسامية مثل حجر الخفان مملوءة بمسام كبيرة ممتدة ، تمتص عن طريقها كميات وفيرة من الماء ، وتختزنها طوال فصل الشتاء ، أما فى فصل الصيف فتفرزها فى كل مكان ، كجداول من العرق ، وهذه تسبب زيادة منسوب النهر . ويبدو لنا أن هذا الكاتب لم يفحص بنفسه طبيعة أرض مصر ، ولم يتحر عنها بشىء من الدقة من أولئك الذين خبروا طبيعة هذه البلاد . فأولاً ، إذا كان النيل يتلقى زيادته من مصر

(١) أى الشمال الغربى .

(٢) يعنى أنه ليس لدينا دليل ملموس على شدة ارتفاع جبال الحبشة .

نفسها فليس هناك إذن ما يدعو إلى فيضانه فى مجراه الأعلى حيث ينساب النهر من أراضٍ صخرية جرداء . والواقع من الأمر أن النهر يفيض قبل أن يصل إلى مصر فى مجراه الممتد إلى أكثر من ستة آلاف ستاد فى أراضى الحبشة . وثانياً ، لو كان قعر النهر أكثر انخفاضاً من مسام التربة الطمبية ، لبدت المسام إذن على سطح الأرض وأصبح من المتعذر أن تحتفظ بهذه الكميات الكبيرة من الماء فى باطنها . أما إذا كان النهر أعلى من مستوى المسام ، تعذر تسرب المياه من المسام فى المستوى المنخفض إلى مياه النهر العالية . وبالجملة ، فهل يعقل أن ما تفرزه الأرض من مسامها يمكن أن يزيد من مياه النهر إلى حد أنه يغمر كل مصر تقريباً . وإنى أجاوز قول إيفورس الفاسد عن التربة الطمبية والمياه التى تختزن فى مسامها فبطلانه بين جلى . ففى آسيا مثلا قد كون نهر مياندر مساحة كبيرة من التربة الطمبية ولكن لم تلاحظ فيما يتصل به من ظاهرات ، ظاهرة واحدة تشابه فيضان النيل . وكذلك الحال بالنسبة لنهر أخيلوس فى أكرنانيا ونهر كيفيسوس فى بيوشيا الذى ينبع من فوكيس ، فإن كليهما كونا مساحات واسعة من التربة الطمبية وهما يقومان برهاناً قاطعاً على فساد نظرية المؤرخ . وعلى أى حال ، فلا ينبغى لأحد أن يطلب الدقة عند إيفورس بعد أن رأينا أنه لا يعبأ كثيراً باستقراء الحقيقة فى كثير من المسائل .

٤٠ — وحاول بعض فلاسفة منف أن يأتوا بتفسير لظاهرة الفيضان ، فجاء تفسيرهم غير معقول بالرغم من تعذر دحضه ، وقد أخذ به الكثيرون .

فهم يقسمون الأرض إلى ثلاث مناطق ، إحداها تكوِّن عالمنا المسكون هذا ، والثانية تكون فيها الفصول بعكس ما تكون عندنا تماماً ، أما الثالثة وتقع بين الاثنتين فلا يسكنها الناس لشدة حرارتها . فلو أن النيل يفيض فى الشتاء لكان من الجلى أنه يتلقى هذه المياه الزائدة من المنطقة التى نعيش فيها لأن الأمطار الغزيرة تسقط عندنا فى هذا الفصل على الخصوص . ولكن فيضان النهر ، على العكس من ذلك ، يكون فى فصل الصيف ، فمن المرجح إذن أن أعاصير الشتاء تتجمع فى المنطقة المقابلة (الجنوبية) وينساب ما يزيد من مياه هذه المنطقة البعيدة إلى عالمنا هذا ، وهذا فيما يقولون هو السبب فى أنه ما من أحد استطاع أن يصل إلى منبع النيل لأنه ينساب فى المنطقة المقابلة لنا ، ثم يجرى إلينا عن طريق المنطقة غير المكونة . ولقد اتخذوا من فرط عذوبة مياه النيل شاهداً ثانياً على صحة دعواهم ، لأن ماء النهر يلطف فى مجراه فى المنطقة الحارة بتأثير الحرارة ، وهكذا كان النيل أعذب الأنهار جميعاً ، إذ من الطبيعى أن الحرارة تلطف جميع السوائل .

وهناك حجة قريبة لدحض هذا الوهم ، فمن الجلى أنه من غير المعقول أن ينساب نهر مصعداً فى عالمنا المعمور هذا ، من المنطقة المعمورة المقابلة لنا ، خصوصاً إذا أخذنا بنظرية أن الأرض كروية الشكل . وحتى إذا تعسف المرء فى استدلالاته ، وضرب بالحقيقة السافرة عرض الأفق ، ما أفسحت طبائع الأشياء الطريق لهذه النظرية . وبالجملة ، فإنهم يتوهمون أنه بوضعهم العالم الخلاء بين المنطقتين المعمورتين ، قد أتوا بنظرية لا تقبل التجريح ،

إذ أبعدوا بينها و بين البحث التجريبى الدقيق . ولكن ينبغى لمن يتعسف فى نظرياته فى بعض المسائل أن يأتى بالدليل عليها من الحقيقة الواقعة ، أو يقيم براهينه على فروض تدعو إلى التصديق لأول وهلة . فكيف تأتى لنهر النيل أن يكون النهر الوحيد الذى يجرى من ذلك العالم المعمور المقابل إلى عالمنا ؟ فمن المعقول أن يكون هناك أنهار أخرى تماثله كما هو الحال عندنا . هـذا إلى أن الأسباب التى يعزون إليها عذوبة مياه النهر سخيفة جداً . فلو أن النهر اكتسب عذوبة مياهه بفعل الحرارة ، لما كان كما هو الآن مخصباً يغذى جميع أنواع الأسماك والحيوان . ذلك أن جميع الأمواه التى تتغير طبيعتها بتأثير العنصر الحرارى تفقد قدرتها على إنماء الكائنات الحية . وإذن ، فحيث إن طبيعة النيل تنقض تماما نظرية تأثر مياهه بالحرارة فيجب أن نعتبر ما أوردوا من أسباب للفيضان فاسداً .

ويقرر أوينوبيديس[1] Oenopides الخيوى أن الماء الجوفى يكون بارداً فى الصيف ، أما فى الشتاء فيكون على العكس حاراً كما نرى بوضوح فى ماء الآبار العميقة ، ففى منتصف الشتاء يكون ماؤها أبعد ما يكون عن البرودة ، أما فى حَمَارَّة الصيف فيستنبط منه ماءٌ باردٌ جداً . فمن المعقول فى رأيه إذن أن ينخفض النيل فى الشتاء ويقل ماؤه ، حيث تستهلك حرارة الأرض أكثر مائه ، وليس فى مصر أمطار ، أما فى الصيف ، وليس هناك من استهلاكٍ للماء فى باطن الأرض فيزيد النهر ماشاء . ونقول

(١) فلكى ورياضى عاش فى القرن الخامس ق . م .

فى الرد على هذه النظرية إن كثيراً من أنهار ليبيا التى تناظر نهر النيل فى موقع مصباتها ومجراها ، يشابه مجراه ، لا تفيض بالرغم من ذلك مثله ، بل بالعكس تزيد فى الشتاء وتنخفض فى الصيف ، فهى تقوم برهاناً على عَبَث محاولة خنق الحقيقة بالمنطق المعقول .

أما أجاثارخيديس (١) Agatharchides الأكنيدى فقد كان أقرب إلى إصابة الحقيقة من سواه ، فهو يقرر أن الأمطار تهطل كل عام على جبال الحبشة مستمرة من الانقلاب الصيفى إلى الاعتدال الخريفى ، فمن المعقول إذن أن ينقص النهر فى الشتاء لأنه يستمد مياهه حينئذٍ من ينابيعه فقط ، أما فى الصيف فيزيد بسبب الأمطار التى تتدفق إليه . فإذا لم يكن أحدٌ استطاع إلى وقتنا هذا أن يعلل أسباب سقوط هـذه الأمطار فليس ذلك — فيما يقول — بمبرر فى رفض رأيه الشخصى هـذا . لأن الطبيعة تأتى بكثير من المتناقضات ، ومن المتعذر على الإنسان أن يبيِّن أسبابها بدقَّة . ويؤيد نظريته — فيما يعتقد — ما يحدث من ظاهرات فى بعض أصقاع آسيا . فعلى حدود سكيثيا Scythia عند اتصالها بجبال القبج Causacus يحدث سنوياً — بعد انقضاء فصل الشتاء — أن تنهمر كميات بالغة من الثلوج أياماً كثيرة متتالية . ويحدث فى بعض الفصول أن يسقط البَرَدُ على سفوح الهند الشمالية فى حجوم وكميات لا يتصورها العقل . وتهطل الأمطار باستمرار بالقرب من نهر هيداسپيس Hedaspes فى أول فصل الصيف ،

(١) مؤرخ وجغرافى عاش فى القرن الثانى ق . م .

وبعد أيام قلائل يتكرر الأمر نفسه فى بلاد الحبشة . وهذه العوامل الحيوية التى تحيط دائماً بالمنطقة كلها تسبب المناخ الشتوى هناك ، فليس إذن ما يدعو إلى العجب — فى زعمه — من أن الأمطار تهطل باستمرار فوق جبال الحبشة ، وهى أكثر ارتفاعاً من مصر ، فتنحدر فى فصل الصيف ، وتزيد فى مياه النهر ، خصوصاً وأن أهل تلك البلاد يؤيدون هذه الحقيقة الواضحة . فبالرغم من أن ما يقررونه يناقض ما خبرنا ، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحٌ إعصاريّة ، تسبب فى الحبشة جواً صحواً ، والرياح الشمالية فى أوربا عاتية ، فى حين أنها فى تلك البلاد بليلة عليلة .

والآن ، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلة أخرى رداً على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل ، إلا أننا سنكتفى بما أسلفنا ، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه بادئ ذى بدء من حدود الاختصار .

ولما كنا قد قسَّمنا هذا الكتاب — لطوله — إلى قسمين حرصاً منا على تناسب أجزاء هذا السِفْر ، فسننهى هنا هذا القسم من تاريخنا هذا .

وسنورد فى الجزء التالى بقية تاريخ مصر ، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة فى مصر فى أقدم العصور .

الجزء الثانى

٤٢ — إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم — لضخامته — إلى جزئين . يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله ، وعلى معتقدات المصريين فى نشأة الكون ، وتكوين العالم فى البدء ، وفى الآلهة التى أنشأت فى مصر مدناً ونسبتها إلى نفسها ، وعلى آرائهم فى الأناسى الأول ، وفى أسلوب الحياة فى العصر القديم ، وفى عبادة الآلهة الأزلية ، وفى بناء المعابد ، وعلى وصف البلاد المصرية ، والروايات التى تحاك حول نهر النيل ، وأسباب فيضانه ، وآراء المؤرخين والفلاسفة فى ذلك . ويحتوى كذلك على تفنيد كل من آراء هؤلاء واحداً بعد واحد [1] . وسنسرد فى هذا الجزء بقية ما أسلفنا ، مبتدئين بملوك مصر الأول ، وسنذكر أعمال كل منهم إلى عهد أمازيس ، بعد أن نصف باختصار أسلوب الحياة فى مصر فى أقدم العصور .

٤٣ — أما عن طريقة معيشتهم فى العصر القديم ، فيحكى أنهم كانوا يتخذون أكلهم فى ذلك العهد السحيق القدم من الحشائش وسوق نباتات المستنقعات وجذورها ، بعد الاطمئنان إلى مذاقها ، ولقد

(١) يكاد يكون من المحقق أن هذه الفقرة ليست من قلم ديودور . ولكن الكلام الذى يليها لا يتسق مع نهاية الفصل الحادى والأربعين وهو نهاية الجزء الأول .

كان النبات المسمى أجروستيس [1] أول وأهم ما أضافوه إلى أكلهم ، ذلك لامتيازه بشدة الحلاوة ، ولأنه غذاء كاف لجسم الإنسان . ولاحظوا كذلك أنه مفيد للماشية ، يزيد وزنها بسرعة . وعرفاناً بفضل هذا النبات يحمله المصريون عند ما يتوجهون للآلهة ويصلون . وقد كانوا يعتقدون أن أن الإنسان من هوام المستنقعات والبرك ، مستدلين على ذلك بطراوة بشرته ، وببعض الخواص الطبيعية الأخرى ، وبأنه أحوج إلى الطعام الرطب منه إلى الطعام الجاف . ويقال إن السمك كان ثانى ما أقام به المصريون أودهم ، ويزودهم النيل بكميات وفيرة منه ، خصوصاً بعد الفيضان حينما ينخفض النهر ويجف [2] . وكذلك كانوا يأكلون لحم بعض الأنعام ، ويتخذون من جلودها لباساً ، وكانوا يصنعون بيوتهم من الغاب ، ولم تزل آثار هذه العادة باقية بين الرعاة المصريين ، فهم إلى الآن لا يصنعون بيوتهم — فيما يقال — إلا من الغاب ، واجدين فى ذلك كفايتهم . وبعد أن أمضى المصريون أجيالا عديدة ملتزمين هذا الضرب من الحياة فطنوا أخيراً إلى ما يصلح للأكل من محصول الأرض ، ومن بينها الخبز المصنوع من البشنين . وينسب البعض هذا الاكتشاف إلى إيزيس ، بينما ينسبه البعض الآخر إلى أحد الملوك القدماء وهو المدعو مينا ، ويروى الكهنة فى أساطيرهم أن هرمس ابتكر العلوم والفنون ، بينما استنبط الملوك

(١) هو النجيل، وفى اللاتينية Cynodon Dactylon

(٢) يشير إلى جفاف المستنقعات التى يخلفها فيضان النهر .

ما كان ضرورياً لإقامة الأود . ولذلك لم يكن يؤول الملك فى العصور القديمة لأولاد الملوك ، بل للذين يؤدون للشعب أعظم الخدمات ، وذلك إما لأن القوم كانوا يحثون ملوكهم على أداء الخير العام ، وإما لأنهم حقيقة وجدوا فى كتبهم المقدسة نصاً بهذا المعنى .

٤٤ — ويروى بعضهم أنه فى البدء حكم مصر الآلهة والأبطال لمدة تقل قليلا عن ثمانية عشر ألف عام ، وأن حورس بن إيزيس كان آخر من حكم مصر من الآلهة ، ويقال إن البشر حكموا البلاد بعد ذلك فترة تقل قليلا عن خمسة آلاف عام ، وتمتد إلى الأولمبياد الثمانين بعد المائة[١] ، حينما زرت مصر فى عهد بطليموس المسمى نيوس ديونيسوس[٢] . وقد تولى الملك فى الجزء الأكبر من هذه الحقبة ملوك مصريون ، وتولاه فترة قصيرة ملوك من الأحباش والفرس والمقدونيين[٣] ، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش ، ولكن بغير اطراد فى فترات متقطعة ، ومجموع سنى حكمهم يقل قليلا عن ست وثلاثين سنة . وبعد أن قهر قمبيز البلاد بقوة السلاح ، حكم الفرس مصر خمساً وثلاثين ومائة سنة ، بما فى ذلك عهود ثورات المصريين التى أشعلوها لعدم استطاعتهم احتمال قسوة حكم الفرس ، ولتجديف

(١) الأوليمبياد الـ١٨٠ = ٦٠ — ٥٦ ق . م .

(٢) هو بطليموس الحادى عشر حكم مصر من ١٨٠ — ٥١ ق . م ويعرف ببطليموس الزمار .

(٣) حكم الأحباش مصر من ٧١٥ — ٦٦٣ ق . م . تقريباً وهو عهد الأسرة الخامسة والعشرين ، وحكمها الفرس من ٥٢٥ — ٣٣٢ ق . م وحكمها المقدونيون من ٣٣٢ — ٣٠ ق . م .

هؤلاء بآلهة البلاد . وحكم المقدونيون ، وهم آخر من حكم البلاد ، ستة وسبعين ومائتى عام . وفيما عدا هذه الفترات تولى الملك ملوك من أهل البلاد ، عددهم سبعون وأربعمائة ملك ، وخمس ملكات . واحتفظ الكهنة فى كتبهم المقدسة التى يتوارثونها بانتظام من قديم الزمان جيلا بعد جيل بوثائق عن هؤلاء جميعاً ، تروى عن مبلغ جرم كل منهم ، وعن شاكلته ، وعما قام به فى عهده من أعمال . وإذا نحن تحدثنا بالتفصيل عن كل منهم ، كانت مهمتنا طويلة شاقة ، وقد تكون بغير طائل كذلك ، لأن أكثر هذه الوثائق عديم القيمة ، ولذلك فسنحاول أن نسرد باختصار أكثر هذه الروايات جدارة بالتسجيل .

٤٥ — يقول المصريون إن مينا خلف الآلهة على حكم مصر ، وهو الذى علَّم عامة الناس كيف يعبدون الآلهة ، وكيف يقربون الضحايا . هذا ، وقد استحدث المناضد والسرر واستعمال الأغطية الثمينة . وبالجملة فقد أدخل الترف وحياة البذخ ، ويقال إن تنِفاخثوس[١] Tnephachthus أبا بوخوريس Bocchoris الحكيم الذى تولى ملك مصر بعد ذلك العهد بأجيال عديدة ، قام بحملة على بلاد العرب ، ولما نفدت المؤن ، بسبب محل المنطقة ووعورتها ، اضطر أن يبقى يوماً واحداً بلا زادٍ وأن يقنع بحياة غاية فى التقشف بين من التقى بهم من عامة الشعب ، ولقد سر لذلك غاية السرور ، فأنكر الترف ولعن الملك الذى كان أول من

(١) تنِفاختوس هو تِفاخت حكم حوالى ٧٣٠ ق . م

أدخل البذخ ، ولقد أثَّر هذا التغيير فى المأكل والمشرب والنوم فى نفسه إلى حد أنه نقش لعنتة باللغة الهيروغليفية على معبد الإله زيوس فى طيبة . ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسى فى أن شهرة الملك مينا ومجده لم يبقيا على مدى العصور التالية . وخلفت الملك المذكور — فيما يقال — سلالته ، وهى فى مجموعها اثنان وخمسون ملكاً ، حكموا أكثر من أربعين وألف عام ، ولم يحدث فى عهدهم ما يستحق الذكر . وبعد ذلك تولى بوسيريس Busiris الملك وخلف ثمانيةً من ذريته كان آخرهم سمياً له ، وهو الذى أنشأ فيما يقال المدينة التى يسميها المصريون مدينة زيوس الكبرى ويسميها اليونانيون طيبة . وقد جعل محيطها ١٤٠ ستاد وجملها تجميلاً رائعاً ، بإقامة المبانى الضخمة والمعابد الفخمة وغيرها من الآثار . وأقام كذلك مساكن خاصة بعضها مؤلف من أربعة طوابق والبعض الآخر من خمسة . وبالجملة ، فقد جعل من هذه المدينة أجمل المدن لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع . ويرجع الفضل إلى غناها وقوتها فى أن شهرتها بلغت جميع الأصقاع حتى إن الشاعر ذكرها فى شعره حيث يقول :

«لا ولا كل ثروة طيبة المصرية، التى امتلأت خزائنها أيما امتلاء، طيبة ذات المائة باب ، التى ينطلق من كل باب منها ، مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم [1] .»

ويقول البعض إن المدينة لم تكن ذات مائة باب فعلاً ، وإنما كان

(١) هوميروس الإلياذة ٩ ، ٣٨١ — ٣٨٤

لمعابدها مداخل خارجية كثيرة وعظيمة ، ومن هنا نشأت تسميتها بذات المائة باب ، كأنها ذات أبواب كثيرة . والواقع أن عشرين ألف عجلة حربية كانت تنطلق منها إلى الحرب ، فقد كان على طول ضفة النهر من منف إلى طيبة فى الناحية الليبية مائة حظيرة للخيل تتسع كل منها لمائتى حصان ، وما زال أساس هذه الحظائر بادياً إلى الآن [1] .

٤٦ — ولم يؤثر عن هذا الملك وحده الاهتمام بتجميل طيبة ، بل لقد وجه الكثيرون ممن خلفوه فى الحكم اهتماماً خاصاً بتقدم هذه المدينة . فلم تزين مدينة أخرى تحت الشمس بمثل ما زينت به من النصب العديدة الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب والعاج أيضاً ، والتماثيل الضخمة ، ومجموعات المسلات المنحوتة من حجر واحد . ومن بين المعابد الأربعة التى أقيمت فى هذه المدينة يروع أقدمها [2] لجماله وضخامته، فمحيطه ١٣ ستاد وارتفاعه ٤٥ ذراعاً وسمك جدرانه ٢٤ قدماً ، وبهاء نصبه الداخلية متناسب مع تلك العظمة . فهذه النصب تروع بباهظ نفقاتها ، وبما بلغته من منتهى الدقة فى صناعتها . ولقد ظلت تلك المبانى قائمة إلى عصور متأخرة جداً ، أما الفضة والذهب والمصنوعات العاجية الثمينة ، والأحجار الكريمة فقد انتهبها الفرس عندما أحرق قمبيز المعابد المصرية . ويقال إن الفرس نقلوا

(١) يرى بعض النقاد أن الجملة من « ويقول البعض . . . إلى . . . إلى الآن » ليست من قلم ديودور والواقع أن قوله « فى الناحية الليبية » لا ضرورة له .

(٢) يعنى بغير شك معبد آمون فى الكرنك .

حينئذ هذه الثروات إلى آسيا وجلبوا الصناع من مصر ليبتنوا لهم قصورهم الشهيرة فى برسبوليس وسوسا وميديا . ويقال إن ثروة مصر كانت فى هذا العهد عظيمة إلى حد أنه بعد أن أتت النيران على ما تركته يد النهب ، جمع ما بقى بدقة بعضه إلى بعض ووجد أنه يقوّم بأكثر من ثلثمائة طالنت من الذهب وبما لا يقل عن ثلثمائة وألفين طالنت من الفضة . وهناك فى يقولون مقابر رائعة للملوك القدماء ، لم تدع لمن خلفهم من الراغبين فى محاكاتهم فى مضمار العظمة ، مجالا للسبق . ويقول الكهنة إنهم يجدون فيما بين أيديهم من وثائق أنه كان يوجد بها سبع وأربعون مقبرة ملكية بقى منها إلى عهد بطليموس بن لاجوس (١) فيما يقولون سبع عشرة مقبرة . كان أكثرها قد تهدم عندما زرنا هذه المناطق فى الأولمبياد الثمانين بعد المائة . وليس الكهنة المصريون وحدهم هم الذين يقصون ذلك اعتماداً على وثائقهم ، بل إن الكثيرين من اليونانيين الذين زاروا طيبة فى عهد بطليموس بن لاجوس وكتبوا فى التاريخ المصرى ومن بينهم هيكاتيوس (٢) Hecataeus يوافقون على ما أوردت .

يقول هيكاتيوس إنه على بعد عشرة ستاد من المقابر الأولى ، التى يؤثر

(١) بطليموس الأول حكم مصر ٣٢٣ — ٢٨٥ ق . م .

(٢) هيكاتيوس الأبدرى مؤرخ من القرن الثالث ق . م . وكتابه «مصريات» من المصادر التى اعتمد عليها ديودور اعتماداً كبيراً .

أنها تضم رفات خليلات زيوس يقوم نصب لملك يدعى أوزيمانديّاس (١) Osymandyas وعند مدخله دهليز من الرخام الملون طوله ٢ بليثرون ، وارتفاعه ٤٥ ذراعاً ، وفى نهايته يوجد بهو مربع الشكل من الحجر طول كل من أضلاعه ٤ بليثرون ، يقوم على غير المألوف على تماثيل حيوانات مقطوعة من كل حجر واحد ، طول منها ١٦ ذراعاً ، منحوتة على الطراز القديم ، والسقف كله مقطوع من حجر واحد ، وعرضه باعان مغطى باللون الإسمانجونى وموشى بالنجوم . ويلى البهو مدخل آخر وممر يشبه الممر الذى سبق وصفه من جميع الوجوه ، ولكنه يمتاز عليه بدقة ماحفر فيه من صور من جميع الأشكال . وبجانب المدخل ثلاثة تماثيل ، مقطوع كل منها من حجر واحد أسود أسوانى ، من بينها تمثال جالس هو أكبر تماثيل مصر جميعها (٢) . فطول قدمه تزيد على سبع أذرع . أما التمثالان الآخران فينتصبان بحذاء الركبتين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار ، وهما لابنته وأمه ، وهما أصغر من الأول حجماً . وهذا الأثر جدير بالتنويه لا لضخامته فحسب ، بل لباهر صناعته ولطبيعة الحجر الممتازة ، فبالرغم من ضخامته هذه لايوجد به شدخ أو عيب واحد . وقد نقش عليه «أنا أوزيمانديّاس ، ملك الملوك ، إذا أراد أحد أن يعرف مبلغ عظمتى ، وأن

(١) الكلام على معبد الرمسيوم فى الأقصر ، ويظهر أن لفظ أوزيمانديّاس مأخوذ من أوزر ما رع ، أحد ألقاب رمسيس الثانى الملكية .

(٢) تقدر زنة هذا التمثال بألف طن وهو لرمسيس الثانى .

يعلم أين أرقد فليبزنى فى واحد من أعمالى » . وهناك أيضاً تمثال آخر لأمه ينتصب متفرداً ، مقطوع من حجر واحد طوله عشرون قدماً . وهى تكلل رأسها بثلاثة تيجان ترمز إلى أنها بنت ملك ، وزوج ملك ، وأم ملك .

وفى نهاية هذا الممر يوجد بهو آخر أجدر من الأول بالذكر ، حفرت فيه صور فى جميع الأوضاع تمثل حربه ضد ثوار بكتريا (بلخ) Bactria ، فقد استقل ضدهم جيشاً مؤلفاً من أربعمائة ألف راجل ، وعشرين ألف فارس ، وقسم الجيش كله إلى أربع فرق ، وضعت كل واحدة منهـا تحت إمرة أحد أبناء الملك[1] .

٤٨ — وقد صوّر الملك على الحائط الأول لهذا البهو محاصراً قلعة يحيط بها نهر ، وقد انبرى فى الصف الأول لمن تصدى له ، وبجانبه سبع يشد أزره ، ويشيع الرعب من حوله . ويقول بعض مفسرى هذه الرسوم ، إن السبع أليف تربى على يدى الملك ، وقام بنصيبه من مخاطر القتال ، وجعل الأعداء يولون الأدبار خشية بطشه . ويقول البعض الآخر ، إنه لما كان الملك بالغ البـأس وأراد أن يمتدح نفسه بطريقة مبتذلة ، فقد أبرز جبِلَّته على صورة سبع .

أما الحائط الثانى فيرينا أسرى الحرب[2] الذين اقتنصهم الملك . وقد

(١) هذا وصف حملة رمسيس الثانى ضد الحيثيين سنة ١٢٨٨ ق . م . ويقدر عدد المصريين فيها بحوالى عشرين ألف مقاتل .

(٢) لقد قطعت أيدى قتلى الحرب لا الأسرى.

خُصُوا وقطعت أيديهم . ولعل فى ذلك إشارة إلى وهن عزيمتهم ، وقلة حيلتهم فى مواجهة الأخطار . ونقشت على الحائط الثالث صور مختلفة ورسوم رائعة تمثل الملك يضحى ثيراناً ، وتصور الانتصار الذى أحرزه فى الحرب . وفى وسط هذا البهو أقيم هيكل تحت قبة السماء ، من أحسن أنواع الرخام ، دقيق الصنع بالغ الحجم . وفى ناحية الحائط الرابع يوجد تمثالان جالسان ، قطع كل منهما من حجر واحد ، طوله سبع وعشرون ذراعاً ، وعلى جوانب هذين التمثالين توجد ثلاثة ممرات تفضى من هذا البهو إلى بهو الأعمدة المشيَّد على نسق بهو الموسيقى Odeum ، وطول كل من أضلاعه مائتا قدم وفيه مجموعة من التماثيل الخشبية تمثل خصوماً تعلقت أعينهم بقضاتهم ، وهؤلاء القضاة مصورون على أحد الجدران[1] وقد بلغوا الثلاثين عدداً ، ويتوسطهم قاضى القضاة وقد عصبت عيناه وتدلت صورة « الحق » من رقبته وبجانبه كثير من الكتب . وترمز هذه الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة ، وأن قاضى القضاة يجب ألا يعير شيئاً سوى الحق التفاته .

٤٩ — ويلى هذا البهو رواق ذو غرف عديدة مختلفة تعد فيها المأكولات اللذيذة من جميع الألوان ، وتوجد فى هذا الرواق رسوم أيضاً فقد مثل الملك بألوان زاهية وهو يقدم للآلهة ذهباً وفضة ، هى الدخل السنوى من جميع مناجم الفضة والذهب فى مصر . ويبين النقش المكتوب

(١) يضيف بعض النقاد هنا كلمة « بغير أيدى » حتى يستقيم معنى رمز الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة .

تحت الرسم قيمة هذا الذهب والفضة التى تبلغ اثنين وثلاثين مليون منا من الفضة . ويلى هذا الرواق المكتبة المقدسة وقد كتب على واجهتها « مصح الروح » وبجوار المكتبة ترى صور جميع آلهة مصر ، ويرى الملك كما فى الصورة السابقة وهو يقدم لكل منهم ما هو جدير به ، وكأنه يشهد أوزيريس ومعاونيه فى العالم السفلى على أنه قضى حياته فى البر وصالح الأعمال نحو الناس والآلهة جميعاً . وفى ملاصقة المكتبة بنيت غرفة فى غاية الأناقة ، بها عشرون سريراً ، وفيها صور تمثل زيوس وهيرا والملك أيضاً ، ويظهر أن الملك كان قد دفن هنا . وحول هذه الحجرة ، بنيت عدة غرف صغيرة بها رسوم رائعة لجميع الحيوانات المقدسة فى مصر . ويفضى طريق صاعد من بين هذه الغرف إلى المقبرة نفسها ، عند نهايته توجد فوق الضريح حلقة ذهبية محيطها خمس وستون وثلثمائة ذراعاً وسمكها[١] ذراع واحدة ، حفرت عليها — على مسافات متساوية طول كل منها ذراع واحدة — أيام السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها كما تقضى الطبيعة ، ومواقيت الفصول مستخرجة منها بحساب علم الهيئة المصرى . ويقال إن الفرس سرقوا هذه الحلقة عندما غزا قمبيز مصر .

هكذا يصفون ضريح الملك أوزيماندياس الذى لم يبز سائر الضرائح فى باهظ نفقاته فحسب بل فى تفنن الصناع فيه أيضاً .

(١) الأولى أن يقول « عرضها »

٥٠ — ويدعى أهل طيبة أنهم أعرق الناس جميعاً فى القدم ، وأن الفلسفة نشأت بينهم أولاً ، وكذلك علم الهيئة الدقيق وذلك لأن جوّ بلادهم ساعدهم على أن يروا بجلاء طلوع النجوم وغروبها . ويقولون كذلك إن الشهور والسنين مقوّمة عندهم بطريقة خاصة ، فهم لا يحسبون اليوم بالقمر بل بالشمس ، والشهر عندهم ثلاثون يوماً ، ويضيفون فى حسابهم خمسة أيام وربعاً كل اثنى عشر شهراً ، وبذلك يُتمّون مدار السنة ، فهم لا يزيدون شهوراً إضافية ولا يقطعون أياماً كما يفعل أكثر اليونانيين ، ويظهر أن ملاحظتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر دقيقة ، فهم يتكهنون بحدوثهما قبل أوانهما ، ويتنبأون بكل جزئيات هاتين الظاهرتين بكل دقة .

ولقد أنشأ الثامن من سلالة هذا الملك ويدعى أوخوريوس Uchoreus مدينة منف أشهر المدن المصرية . فقد اختار لها أنسب موقع فى البلاد كلها ، حيث يتشعب النيل إلى فروع عديدة ويكوّن الدلتا التى سمّيت كذلك لشكلها . وهكذا أصبحت المدينة لحسن موقعها عند مفتاح البلاد مسيطرة على السفن التى تبحر جنوباً . وشيّد حول المدينة سوراً طوله ١٥٠ ستاد شديد المتانة عظيم الفائدة . وابتناه بالطريقة التالية : لما كان النيل يجرى حول المدينة ، ويغمرها عندما يفيض فقد أقام فى الجنوب سدّاً عظيماً يكون عند الفيضان بمثابة حاجز لمياه النهر ، وحصناً ضد الأعداء فى غير وقت الفيضان ، ثم احتفر حول جميع الجوانب الأخرى للمدينة بحيرة واسعة عميقة ، ولما امتلأت هذه من ماء النهر المتدفق ، وغمرت كل

المساحة المحيطة بالمدينة فيما عدا الجانب الذى أقام فيه السد ، هيأت للمدينة موقعاً شديد المناعة . ولقد كان خيال منشىء منف صادقاً فى التكهن بملاءمة هذا الموقع إلى حد أن كل الملوك تقريباً الذين خلفوه هجروا طيبة واتخذوا منف مسكناً لهم ومقراً لبلاطهم . وإلى هذا يرجع السبب فى أنه من ذلك الحين بدأت شهرة طيبة فى الذبول [1] فى حين ظلت شهرة منف فى ازدياد إلى عهد الإسكندر الذى أنشأ على ساحل البحر المدينة التى سميت باسمه ، وتنافس خلفاؤه على عرش مصر جميعهم فى العمل على زيادة روعتها ، فزينها بعضهم بالقصور الفخمة ، والبعض الآخر بأحواض السفن والموانىء ، والبعض الآخر بمختلف النصب التذكارية والمبانى الرائعة حتى إن أكثر الناس يعتبرونها أولى مدن العالم أو ثانيتها . حسبى هذا الآن ، فسأصف المدينة بالتفصيل فى المكان المناسب . وبعد أن هيأ منشىء منف هذا السد وهذه البحيرة ، ابتنى قصراً لا يقل شأناً عن غيره فى البلاد الأخرى ، ولكنه لا يتناسب مع أريحية أسلافه ولا مع ما أبدوه من شغف بالجمال .

٥١ — ويعتقد المصريون أن هذه الحياة الدنيا فى غاية التفاهة ، ولكنهم يعلقون الأهمية الكبرى على الحياة الأخرى التى تجعلها الفضيلة شيئاً مذكوراً. وهم يسمّون بيوت الأحياء منازل ، لأنهم يقطنونها مدة قصيرة جداً ، بينما يسمون قبور الموتى المساكن الدائمة ، لأننا نكمل حياتنا إلى الأبد فى العالم

(١) لم يستطع ديودور — وشأنه فى ذلك شأن سائر المؤرخين اليونانيين — أن يكون فكرة صحيحة عن التاريخ المصرى ، فطيبة لم تزدهر إلا فى عصر الأسرة الثامنة عشر فى حين أن منف كانت عاصمة الأسرات الأولى .

السفلى . وإلى هذا يرجع السبب فى قلة اهتمامهم بأثاث بيوتهم فى حين أنهم لا يجارون فى اهتمامهم بقبورهم . ويذهب البعض إلى أن مدينة منف قد سميت كذلك نسبة إلى ابنة الملك الذى أنشأها ، فقد تواترت الروايات بأن نهر النيل أغرم بها ، فاتخذ هيئة ثور ، وأنجب منها إيجيبتوس الذى أعجب به المصريون لفضائله وسميت البلاد جميعها باسمه . ولما اعتلى العرش كان رؤوفاً عادلاً ، وفاضلاً من جميع الوجوه . فأجمع الناس كلهم على أنه جدير بعظيم التقدير ، ولذا فقد حظى من أجل برّه هذا بذلك المجد الذى ذكرت . وبعد ثمانية أجيال من عهد إيجيبتوس ارتقى عرش مصر موريس Moeris [1] الذى ابتنى الجناح الشمالى من معبد منف ، وقد بَزَّ سائر الأجنحة جميعها بهاء وروعة . واحتفر على بعد ١٠ سخينوس Schoeni من جنوب هذه المدينة بحيرة عظيمة الفائدة ، ولو أنها تطلبت مجهوداً لا يتصوره العقل .

فيقال إن محيطها ٣٦٠٠ ستاد وعمقها فى الأكثر خمسون باعاً . فمن ذا يستطيع أن يتصور ضخامة هذا العمل دون أن يكون محقاً فى تساؤله كم من عشرات الألوف من الرجال استخدموا ، وكم من السنين استنفدت لتنفيذ هذا المشروع ؟ حقاً لا يستطيع المرء أن يفى هذا المشروع الملكى ، الذى أضفى على سكان مصر جميعاً كل هذا الخير والمنفعة ، حقه من الثناء .

٥٢ — ولما كان النيل لا يرتفع دائماً إلى منسوب معين ، وكان غنى

(١) هو فيما يظهر أمنمحعت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشر . والحديث كله حول منخفض الفيوم ، وبحيرة قارون .

البلاد متوقفاً على انتظام مستوى ارتفاعه ، فقد احتفر الملك هذه البحيرة لتخزين المياه الزائدة حتى لا يغمر النهر البلاد بتياره القوى فى غير أوان الحاجة فيكوِّن البرك والمستنقعات ، وحتى لا يهلك الزرع لقلة المياه إذا لم يرتفع إلى المستوى المطلوب . واحتفر قناة فيما بين النهر والبحيرة طولها ٨٠ ستاد وعرضها ثلاثة بلثرونات ، وبوساطة هذه القناة كان يطلق أحياناً مياه النهر فى البحيرة ، وكان أحياناً يغلقها ، وبذلك كان يزود الفلاحين بالمياه فى الموسم المناسب بفتح هذا البوغاز وغلقه بطريقة فنية ، ولكنها فى الوقت نفسه كثيرة التكاليف ، لأنه كان يلزم لمن يريد فتح أو غلق هذا البوغاز لا أقل من خمسين طالنت . وقد ظلت البحيرة تفى بحاجة المصريين إلى وقتنا هذا وهى تحمل اسم محتفرها ، فهى تسمى إلى الآن بحيرة موريس . وبعد فحين كان الملك يحفر هذه البحيرة ترك فى وسطها بقعة ابتنى عليها قبراً وهرمين ، أحدهما لنفسه والآخر لزوجه ، ارتفاع كل منهما ستاد واحد ، وأقام على رأس كل منهما تمثالاً من الحجر مستوياً على العرش ، معتقداً أنه بإقامة هذه الآثار سيخلف بعده تذكاراً خالداً لأعماله الجيدة . ووهب ما يجبى من الضرائب على الصيد فى البحيرة لزوجه لتنفقه على عطورها وأسباب زينتها الأخرى . وقد بلغت قيمة ما يصاد فى اليوم الواحد منها طالنتاً من الفضة . إذ فى البحيرة — فيما يقال — اثنان وعشرون نوعاً من السمك ، وهى تستخرج بكميات وفيرة إلى حد أن الذين يعملون فى حفظها على كثرتهم البالغة ، كانوا يؤدون واجبهم بشق الأنفس . تلك

إذن هى الرواية التى يحكيها المصريون عن موريس .

٥٣ — ويقال إنه بعد سبعة أجيال تبوأ سيسوسيس [1] Sesoosis العرش وقام بأعمال عظيمة طغى صيتها على ما قام به أسلافه ، وقد تضاربت الآراء بصدد هذا الملك بين مؤرخى اليونان ، والمصريون أنفسهم لم يستقروا بشأنه على قرار سواء فى ذلك الكهنة أو الشعراء الذين مدحوه . وسنحاول من جانبنا أن نثبت أكثر الروايات ترجيحاً وأشدها اتفاقاً مع آثاره التى ما زالت قائمة فى البلاد . عند ولادة سيسوسيس قام أبوه بعمل ملكى باهر إذ جمع من كل أنحاء مصر الأطفال الذكور الذين ولدوا فى نفس اليوم ووكل بهم مرضعات ومربين ، وخصصهم جميعاً بتربية وتعليم واحد ، وقد كان سلوكه هذا قائماً على فرض أن الذين ينشأون معاً فى خلطة وطيدة ، متمتعين بقدر واحد من حرية إعلان الرأى يكونون أشد الناس إخلاصاً وأشجع الأقران فى الحرب ، وكفل للأولاد ما يلزمهم بسخاء ، ودربهم برياضة ومشاق لا تنقطع ، ولم يكن يسمح لأحدهم بتناول طعامه قبل أن يكون قد قطع ثمانين ومائة ستاد جرياً ، ولذلك ، كانوا حين بلغوا مبلغ الرجال ، صناديد أقوياء الجسم ، جديرين لسمو نفوسهم بالقيادة ، قادرين على احتمال المشاق لما دربوا عليه من سامى الأغراض . وبدأ سيسوسيس بأن أوفده أبوه صحبة أترابه على رأس حملة إلى بلاد العرب ، وبعد أن تحمل

(١) يسميه هيرودوت سيسوستريس . وهيرودوت يخلط هنا بينه وبين رمسيس الثانى ، ولكن الاسم على الأرجح مأخوذ من اسم سنوسرت الثالث أو أوسرتسن من فراعنة الأسرة الثانية عشرة .

أهوال صيد الحيوانات المفترسة ، وعانى مشاق نفاد الماء وندرة الغذاء من حين إلى حين ، غزا كل الشعب العربى ، الذى لم يسبق أن استعبد من قبل ذلك العهد ، ولما أنفذَ بعد ذلك إلى الأقاليم الغربية أدخل معظم ليبيا تحت إمرة مصر ، مع أنه كان لا يزال حديث السن جداً .

ولما اعتلى العرش بعد موت أبيه وقد ملأته فتوحاته السابقة زهواً ، اعتزم أن يغزو كل المعمورة ، وهناك من يقول إن ابنته أثيرتيس Athyrtis دفعته إلى مد سلطانه على العالم أجمع . ويرى البعض أنها أفلحت ، لما امتازت به على غيرها من شدة الذكاء ، فى إقناع أبيها بأن الحملة ستكون سهلة ميسرة ، فى حين يرى البعض الآخر أنها كانت تتعاطى الكهانة وأنها اطلعت على ما يضمره الغيب عن طريق العرافة ، والنوم فى المعابد ، وما يبدو فى السماء من شارات . وكتب البعض أنه عند ميلاد سيسوسيس رأى أبوه هيفايستوس فى منامه وأنبأه بأن الطفل المولود سيحكم العالم أجمع . وهذا إذن هو السبب فيما يقولون فى أن أباه جمع كل أترابه ، وكفل لهم تنشئة ملكية متخذاً الأهبة من قبل لغزو العالم ، ولما بلغ سيسوسيس مبلغ الرجال آمن بنبوءة الإله ، وحُمِل على القيام بهذه الحملة .

٥٤ — وتحقيقاً لهذا الغرض كان مسعاه الأول كسب عطف المصريين ، معتقداً أنه لكى يصيب نُجْحاً فى خطته يجب أن يكون المشتركون فى الحملة مستعدين للقاء الموت فى سبيل قادتهم وأن يكون المخلَّفون فى وطنهم بعيدين كل البعد عن الثورة . ولذلك فقد أضفى الخير على رعاياه أجمعين

بكل ما استطاع من سُبُل ، فاكتسب البعض بالهبات المالية ، والبعض الآخر بإقطاعات الأرض ، والبعض بإلغاء العقوبات ، وامتلك قلوبهم بحسن معاملته ودماثة أخلاقه ، فعفا عن كل من اتهم بالخيانة العظمى ، وأعفى المسجونين بسبب الدين من التزاماتهم ، وقد كانت السجون غاصة بهم . وقسم البلاد كلها إلى ستة وثلاثين إقليماً يسميها المصريون مقاطعات ، ونصب على كل إقليم والياً ليكون مسئولاً عن جباية الضرائب الملكية ، وعن إدارة إقليمه ، وانتقى من بين رعيته أولئك الذين يمتازون بالقوة البدنية وكوّن منهم جيشاً كفأً لمشروعه العظيم ، والواقع من الأمر أنه جنّد ٦٠٠،٠٠٠ راجل و٢٤،٠٠٠ فارس . وجهّز ٢٧،٠٠٠ مركبة حربية ووضع فرق هذا الجيش تحت قيادة أترابه ، وكانوا قد اكتووا فعلاً بنار الحرب ، شديدى الولع منذ طفولتهم بالبطولة ، يكنّون الحب الأخوى للمليك ولبعضهم البعض ، وكان عددهم يربى على ١٧٠٠ شخص ، وأقطعهم جميعاً أجود الأرض حتى يستطيعوا — وقد رُتِّب لهم دخل كاف ، وانتفت عنهم الحاجة — أن يتفرغوا لممارسة فنون الحرب .

٥٥ — وبعد أن جهّز جيشه سار أولاً ضد الأحباش الذين يسكنون جنوب مصر ، وهزمهم واضطرهم إلى دفع جزية من الآبنوس والذهب والعاج ، ثم أنفذ حملة مؤلفة من أربعمائة سفينة إلى البحر الأحمر [1] . فهو أول من ابتنى سفناً حربية من المصريين ، واستولى على الجزائر الواقعة فى

(١) يعنى الخليج الفارسى

تلك الجهات . أما فى القارة نفسها فقد أخضع الشاطىء إلى الهند ، أما هو فقد شق طريقه راجلاً على رأس جيشه وقهر كل آسيا . فهو لم يذهب إلى البلاد التى غزاها فيما بعد الإسكندر المقدونى فحسب ، بل أوغل أيضاً فى بعض الأقطار التى لم تطأها أقدام الإسكندر ، فقد عبر نهر الـكنج واجتاز بلاد الهند كلها إلى المحيط ، وأوغل فى القبائل الإسكيثية حتى أتى نهر التنايس Tanais [١] الذى يفصل بين آسيا وأوربة . ويقال إن جماعة من المصريين تخلفوا فى ذلك الحين بالقرب من بحر مايوتيس Maeotis [٢] وكوّنوا قبيلة الـكولخيين [٣] ويسوقون الدليل على أن هذه القبيلة من أصل مصرى، بأن عادة الختان تمارس عندها كما تمارس فى مصر فهذه العادة تسود بين الجاليات المصرية التى تنزح عن مصر كما هو الحال عند اليهود .

وأدخل تحت نيره كذلك الإقليم الباقى من آسيا وأكثر جزائر الأرخبيل ثم عبر البحر إلى أوربة وأوغل فى تراقيا كلها وهناك كاد يفقد جيشه لنفاد المؤن ووعورة البلاد . ولذلك فقد جعل من تراقيا حدود حملته وأقام أعمدة فى كثير من البقاع التى أخضعها ، وكانت هذه الأعمدة تحمل النقش الآتى مكتوباً بالحروف المصرية التى يسمونها مقدسة « سيسوسيس ملك الملوك ، ورب الأرباب أخضع هذه البلاد بقوة سلاحه » وصور على الأعمدة صورة سوءة

(١) هو نهر الدون (٢) هو بحر آزوف

(٣) حدود بلادهم البحر الأسود فى الغرب وجبال القوزاق فى الشمال ، ومقاطعة جورجيا فى الشرق وطرابيزون فى الجنوب. ويرجح البعض أن الحضارة المصرية أثرت فى الـكولخيين .

رجل بين القبائل المحبة للحرب، وسوءة أنثى بين القبائل المترهة الرعديدة ، فقد رأى أن هـذا العضو المميز للجنس سيظهر بجلاء للأجيال المقبلة طبيعة نفس كل من هذه الشعوب ، وأقام لنفسه فى بعض المناطق تمثالاً من الحجر يصوره متدرعاً يحمل قوساً وسهاماً ورمحاً طوله أربع أذرع وأربع راحات ، وهو طول سيسوسيس نفسه فى الحقيقة . وعامل الشعوب المقهورة بالحسنى .

وبعد أن اختتم حملته فى تسع سنوات أمر الشعوب المقهورة أن تحمل لمصر الهدايا كل عام كلٌّ بحسب قدرته . أما هو فبعد أن جمع أعداداً غفيرة جداً من الأسرى وكمية بالغة من أسلاب الحرب الأخرى ، قفل راجعاً إلى وطنه وقد أنجز أعمالا أعظم مما قام به أى ملك قبله . هذا إلى أنه زيّن جميع المعابد فى مصر بالنصب والأسلاب الرائعة ، وكافأ الجند الذين قاموا بأعمال مجيدة بالعطايا كل بحسب جدارته . وبالجملة ، فلم تكن نتيجة هذه الحملة أن جمع الجند الذين ساهموا بشجاعتهم فى مشروع الملك ثروة طائلة ، ورجعوا إلى أوطانهم منتصرين، فحسب، بل إن الخيرات من جميع الأنواع تدفقت على مصر بأسرها .

٥٦ — وبعد ، فقد سرّح جيشه وأعفاه من مشاق الحرب ، وسمح للذين ساهموا فى تلك الأعمال المجيدة أن يعيشوا حياة هنيئة متمتعين بالثروة التى اكتسبوها . أما هو وقد كان متعطشاً للحرب ، تواقاً للذكر الخالد ، فقد أقام آثاراً عظيمة تروعك فكرتها كما تروعك المبالغ التى أنفقت عليها ، فحقق بذلك المجد الخالد لنفسه ، ودوام الرفاهية والأمن للمصريين. ولما كان

هم الأول تمجيد الآلهة فقد ابتنى فى كل مدينة فى مصر معبداً للاله الذى كان سكان المدينة يقدسونه قبل سواه . ولم يستخدم المصريين فى هذه الأعمال ، بل أنجزها أسرى الحرب وحدهم ، ولذلك أثبت على كل معبد نقشاً يقول « إنه لم ينصب فى هذا العمل أحد من المصريين » وكان الأسرى البابليون غير قادرين على احتمال مشاق هذه الأعمال ، فثاروا — فيما يقال — على الملك ، واستولوا على موقع حصين على ضفة النهر ، وشنوا الحرب على المصريين ، وعاثوا فساداً فى الإقليم المجاور . وأخيراً ، استقروا فى تلك المنطقة بعد أن صدر عنهم عفو عام وأطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلى بابلون . ويقال إنه لأسباب مماثلة أطلق اسم طرويا على المدينة التى ما زالت إلى يومنا هذا قائمة على ضفة النيل ، ذلك أنه عند ما ارتحل مينيلاوس Menelaus[١] عن طروادة ، وعبر البحر إلى مصر ، و بصحبته جمع غفير من أسرى الحرب ثار عليه هؤلاء واستولوا على بعض المواقع وظلوا يشنون الحرب إلى أن تعهد لهم بالأمن والسلام ، ثم أنشأوا مدينة أطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلى عينه . ولست بغافل عن أن كتيزياس الأكنيدى[٢] أورد رواية أخرى بشأن هاتين المدينتين ، إذ قال إن الذين ارتحلوا إلى مصر مع سميراميس Semiramis[٣] أنشأوهما وأطلقوا عليهما أسماء

(١) المأثور فى القصص أن مينيلاوس قضى ثمانى سنوات هائماً حول شواطىء البحر المتوسط قبل أن يصل هو وزوجه هيلينة إلى أسبرطة بعد حرب طروادة .

(٢) عاش فى أواخر القرن الخامس ق . م . وكتب تاريخ آشور وفارس

(٣) سميراميس وزوجها نينوس هما — كما جاء فى الأساطير — اللذان أنشآ إمبراطورية نينوس أو نينوى .

أوطانهم الأولى . ولكن حيث إنه من العسير أن نسوق الحقيقة بشأن هذه المسائل بدقة ، فقد كان من الضرورى أن نورد مختلف آراء المؤرخين السابقين حتى يتمكن القراء من إصابة محجة الصواب .

٥٧ — ومهما يكن من شىء فقد أقام سيسوسيس قلاعاً عظيمة نقل إليها جميع المدن التى لم يكن موقعها الطبيعى مرتفعاً ، حتى يهيئ للناس والأنعام ملجأ أميناً فى وقت الفيضان . واحتفر فى كل الأرض الفضاء فيما بين منف والبحر قنوات عديدة متفرعة على النهر حتى يتم نقل المحصول بسرعة و يسر ، وحتى يتسنى للأقاليم كلها — باتصال الناس الدائم بعضهم ببعض — أن تنعم بحياة هادئة و بفيض من أسباب النعمة . وأهم ما فى هذا الأمر أنه حسن البلاد وجعلها بمنأى عن غزوات الأعداء فقد كان أغلب القطر المصرى قبل ذلك العهد مطية سهلة للخيول والعجلات ، ولكن منذ ذلك الحين أصبح من الصعب على العدو أن يغزوه لكثرة عدد القنوات المتفرعة على النهر . وحصن الجبهة المصرية الشرقية على طول الصحراء من الفرما إلى هليو بوليس ، وهى مسافة ١٥٠٠ ستاد ، ضد الغزوات المندفعة إليها من سوريا و بلاد العرب . وابتنى أيضاً سفينة من خشب الأرز طولها ثمانون ومائتا ذراع وجهها الخارجى مذهب ، والداخلى مطلى بالفضة ، وقد أرصدت هذه السفينة ومسلتان من الحجر الصلد نقش عليها ما ينبئ عن عظمة قوته . ووفرة دخله وعدد الشعوب التى أخضعها للاله المقدس فى طيبة . وأقام فى منف فى معبد الإله هيفايستوس تمثالين كل منهما من

حجر واحد لنفسه ولزوجه طول كل منهما ثلاثون ذراعاً[١]، وتماثيل أخرى لأبنائه طول كل منها عشرون ذراعاً. وقد كانت إقامتها كلها للسبب الآتى: بعد أن قفل سيسوسيس راجعاً إلى مصر من حملته العظيمة، وكان يمضى وقته بالقرب من الفرما. حدث أن دبر له أخوه مؤامرة بينما كان يحتفى به وبزوجه وأولاده. ذلك أنه بعد أن سكنوا إلى مخادعهم وقد لعبت الخمر برؤوسهم وضع أخوه كميات كبيرة من الغاب الجاف، وكان قد جهزها من قبل — حول خيمة الملك، وأشعل فيها النار. فلما اندلعت النيران فجأة سعى الموكلون بخدمة الملك كسالى لنجدته، فقد كانوا سكارى. ولكن سيسوسيس رفع كلتا يديه إلى السماء وصلى للآلهة لتنقذ زوجه وأولاده، وانطلق بين ألسنة النيران سالماً. فلما نجا بهذه الطريقة العجيبة قرب النذر تمجيداً للآلهة جميعاً كما ذكرنا آنفاً وبخاصة هيفايستوس لأنه كان سبباً فى نجاته.

٥٨ — وعلى كثرة ما ينسب إلى سيسوسيس من عظيم الأعمال، فإن أجلها قدراً فيما يبدو لنا تصرفه مع أولى الأمر فى الشعوب المقهورة فى روحاته وغدواته. فإن الملوك الذين أتيح لهم أن يبقوا على عروشهم فى الدول المغلوبة والفئة التى بلغت فيها أرفع المناصب كانوا يمثلون إلى مصر فى أوقات معينة

---

(١) يوجد بالقرب من منف تمثالان عظيمان لرمسيس الثانى، طول أكبرهما اثنان وأربعون قدماً أو ما يوازى الثلاثين ذراعاً التى يذكرها ديودور وهيرودوت ٢، ١١٠

حاملين إليه الهدايا. وكان سيسوسيس يرحب بهم ويفيض عليهم كل صنوف التكريم، ويودعهم باحترام زائد. ولكنه حينما كان يزمع زيارة معبد أو مدنية، كان يطلق الخيل من مركبته ويضع تحت النير بدلاً منها أربعة ملوك بالتناوب، معتقداً أنه يظهر العالم بذلك أنه لم يعد من ينازعه قصب السبق فى البطولة، وقد قهر أقوى الملوك وأبعدهم شهرة فى الشجاعة. ويبدو أن هذا الملك فاق جميع من سبقوه من الحكام فى المجد الحربى، وعظمة وكثرة ما أقام فى مصر للآلهة من معابد، وما ابتنى من منشآت. وبعد أن حكم ثلاثاً وثلاثين سنة ترك الحياة مختاراً بعد أن زايلته نعمة البصر. ولم يكسبه هذا العمل إعجاب الكهنة فحسب. بل أكسبه إعجاب المصريين كلهم بوجه عام. فقد رأوا أنه اختتم حياته ختاماً يليق بما تجلى فى أعماله من سمو النفس، ولقد زادت شهرة سيسوسيس على مر السنين حتى إنه عند ما وقعت مصر فى قبضة فارس، وأراد دارا أبو أجزركسيس أن يقيم لنفسه تمثالاً فى منف أمام تمثال سيسوسيس، اعترض الكاهن الأعظم على هذا الاقتراح عند ما عرضت المسألة على مجمع الكهنة، مشيراً إلى أن دارا لم يقم بعد بما يفوق أعمال سيسوسيس، ولم يغضب الملك لذلك مطلقاً، بل سر لهذه الصراحة فى القول، ووعد بأنه سيعمل على ألا يكون لاحقاً لسيسوسيس فى أمر ما إذا قسم له أن يبلغ ما بلغه من العمر.

وطلب إلى الكاهن الأعظم أن يزن أعمال كل منهما فى نفس

العمر مبيناً أن ذلك أعدل محك لعظمتهما . ولنقنع الآن بما أسلفنا من قول عن سيسوسيس .

٥٩ — وورث ابنه ملك أبيه واتخذ اسمه ، ولكنه لم يقم بعمل حربى أو غير حربى يستحق الذكر ، وانتابته محنة عظيمة إذ فقد بصره ، إما لمشابهة فى تركيب الجسم بينه وبين أبيه أو كما يقول البعض لكفره بالنهر ، فقد ألقى سهمه فى قلب التيار المائى حينما طوحت به الأمواج العاصفة . وقد اضطرته محنة العمى هذه إلى أن يلجأ إلى المعونة الإلهية محاولاً لمدة طويلة أن يسترضى الآلهة بالأضاحى والقرابين المتعددة ، ولكنه لم يلق رضا وفى السنة العاشرة ، أمره الوحى أن يمجد إله هليوبوليس وأن يغسل وجهه ببول امرأة لم تتصل قط برجل غير زوجها . فاستعان أول الأمر بزوجه ، ثم جرب نساء أخريات ، لم يجد منهن واحدة طاهرة إلا زوج أحد البستانيين ، فتزوج منها بعد أن استرد بصره ، وحرق الأخريات أحياء فى إحدى القرى ، وقد أطلق عليها المصريون — إشارة إلى هـذه الحادثة — اسم « الأرض المقدسة »[1] . وأقام الملك — انصياعاً لأمر الوحى وعرفاناً بصنيع إله هليوبوليس — مسلتين من حجر واحد سمك كل منهما ثمانى أذرع وطولها مائة ذراع[2] .

٦٠ — وبعد ذلك الملك لم يقم الكثيرون ممن خلفوه على العرش

(١) القصة واردة فى هيرودوت ٢ ، ١١١ باختلاف يسير .

(٢) لاتزال إحداهما قائمة إلى الآن ، وهى من حجر الجرانيت وارتفاعها ٦٦ قدماً .

بعمل واحد يستحق الذكر . وبعد أجيال عديدة تولى أمازيس Amasis الملك ، فساس الرعية بالعنف ، وعاقب الكثيرين ظلماً ، وحرم عدداً غفيراً من ممتلكاتهم ، وعامل رعاياه كلهم بازدراء وعتو . ولقد احتمل الشعب المتألم زماناً فلم يكن فى مكنته أن يحمى نفسه ضد أصحاب السلطة الكبرى . ولكن لما غزا أكتيزانيس[1] Actisanes ملك الحبشة مصر ، وجد غيظ المصريين منفرجاً ، فثارت غالبيتهم ضد أمازيس ، فهزم بسهولة ووقعت مصر تحت حكم الأحباش ، ولم يطر هذا النجاح بلب أكتيزانيس ، فعامل الشعب المقهور بالحسنى ، وقام بعمل جليل بشأن اللصوص ، فلم يحكم بالموت على المذنبين ولا هو أطلق سراحهم دون عقاب البتة ، بل جمع من كل أقاليم مصر المتهمين باقتراف الجرائم ، وبعد أن قام بتحريات دقيقة جمع كل من أدينوا وجدع أنوفهم وأبعدهم إلى حدود الصحراء ، وأنشأ لهم مدينة سميت رينوكولورا أى « مجدوعة الأنف » نسبة إلى سكانها . وهى تقع على الحدود بين مصر وسوريا غير بعيد من ساحل البحر ، محرومة من كل أسباب الحياة الإنسانية تقريباً ، وهى محاطة بمنطقة مغطاة بطبقة سميكة من الملح ، ولا يوجد داخل حدود المدينة إلا قدر ضئيل من الماء فى الآبار غير نقى ومر المذاق . ولقد أبعد المجرمين إلى هـذه المنطقة حتى لا يمارسوا من ناحية الأعمال التى درجوا على ممارستها طوال حياتهم ،

(١) يرى البعض أن أكتيزانيس هو الملك سباكو أو سباكا ٧١٢ — ٧٠٠ ق.م وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين .

فينتهكوا حرمة الأبرياء ، وحتى يظلوا من ناحيـة أخرى متميزين فى صلاتهم بغيرهم من الناس . ولكن بالرغم من أنهم كانوا منبوذين فى صحراء عديمة الموارد تقريباً فقد اهتدوا إلى طريقة لكسب قوتهم تناسب ماهم فيه من فقر . فقد اضطرتهم الطبيعة إلى طرق كل السبل الممكنة لمواجهة الإملاق . فقطعوا الغاب فى المنطقة المجاورة واستطاعوا بشقه أن يصنعوا منه شباكاً طويلة جداً ، نصبوها على الشاطئ على مسافة أميال عديدة لاصطياد السمانى الذى يطير فى أسراب كبيرة من ناحية البحر ، فاصطادوه بكميات كبيرة أقامت أودهم .

٦١ — وبموت هذا الملك استعاد المصريون السلطة ، ونصبوا منديس[1] Mendes ملكاً عليهم ، وهو مصرى الأصل ، ويسميه البعض مارّوس Marrus . ولم يقم هذا الملك بعمل حربى على الإطلاق ، ولـكنه شيد البناء الذى يعرف باسم اللابرنث « قصر التيه » قبراً له ، وهو لا يدعو إلى العجب لضخامته بل لدقة صناعته التى لا تحاكى ، فإن من يلجه لا يستطيع أن يجد طريقه إلى الخارج بسهولة إلا إذا كان له دليل محنك جداً . ويحكى أن ديدالوس[2] Daedalus أبحر إلى مصر ، وأعجب بما تجلى فى هذا البناء من المهارة الفنية ، فابتنى لمينوس Minos ملك

(١) يسميه إسترابون مرة إيمانديس ومرة إيسمانديس .

(٢) شخصية أسطورية تمثل عند اليونانيين بدء تطور فنى النحت والعمارة . والاسم فى اليونانية يعنى « الصانع الحاذق » .

أقريطش تيهاً يشبه التيه المصرى ، وأودع فيه الحيوان المسمى مينوطور Minotaurus ولـكن التيه الأقريطشى لم يبق له وجود مطلقاً ، ويعزى هذا إلى أن أحد الملوك قد قوّضه من أساسه ، أو إلى أن الزمان عدا عليه . أما التيه المصرى فما زال إلى يومنا هذا محتفظاً بكامل رونقه .

٦٢ — وبعد موت هذا الملك ظلت البلاد بلا حاكم خمسة أجيال ، تولى الملك بعدها رجل نكرة سماه المصريون كيتيس[1] Cetes ويعرف عند اليونان باسم پروتيوس Proteus كان معاصراً للحروب الطروادية . وقد تواترت الأنباء بأنه كان متفقهاً فى علم الأرواح ، فقد كان فى قدرته أن ينسخ نفسه حيواناً مرة وأخرى شجرة أو ناراً أو أى شىء آخر . وتتفق مع هذه الرواية رواية الـكهنة القائلة بأن الملك اكتسب معرفته بهذه الأمور من اتصاله الوثيق الدائم بعلماء الهيئة . هذا فى حين أن قصة نسخ شكله هذه نشأت عند اليونان من تقليد متوارث لدى المصريين ، فقد كان من عادة ملوك مصر أن يضعوا على رؤوسهم رأس أسد أو ثور أو ثعبان بمثابة رمز لسلطانهم . وقد يضعون أحياناً على رؤوسهم شجرة أو ناراً وأحياناً يضعون شيئاً من البخور الذكى . وهم لا يتخذونها للزينة فحسب ، بل ليلقوا كذلك الرعب والرهبة فى قلوب الناس . وبعد موت پروتيوس خلفه ابنه ريمفيس[2] Rhemphis على العرش ، فقد قضى حياته كلها مولياً همه لتنمية

(١) لا يعرف عن كيتيس هذا شىء . أما پروتيوس فيظهر أنه تحريف لقب مصرى ، وهو فى الأساطير اليونانية ملك أرجوس .

(٢) ريمفيس هورمسيس الثالث ويسميه هيرودوت رامپسينيتوس ٣ ، ١٢١

دخله وجمع المال من مختلف المصادر ولم ينفق – لخسة نفسه وجشع طبعه – شيئاً على قرابين الآلهة أو فى البر بالإنسان . ولما كان مديراً حاذقاً لشئون المال أكثر منه ملكاً ، فبدلاً من أن يخلف ذكرى بطولة ، خلف مبالغ من المال أكبر مما خلفه أى ملك قبله . فقد أثر عنه أنه جمع حوالى ٤٠٠,٠٠٠ طالنت من الفضة والذهب .

٦٣ — وبعد موته خلفه على العرش مدى سبعة أجيال ملوك خاملون صرفوا هممهم إلى المتعة والترف ولذلك لم تحفظ لنا سجلات الكهنة إشارة واحدة إلى أثر من آثارهم ، أو عمل ما من أعمالهم يستحق الذكر، اللهم إلا فيما يتعلق بالملك نيلوس Nileus الذى سمى النهر باسمه ، وقد كان النهر يدعى من قبل إيجيبتوس Aegyptus . فقد احتفر هذا عدداً كبيراً من القنوات فى مواضع صالحة ، وأثبت بمجهودات مختلفة حرصه على أن يزيد من فائدة النهر ، ومن هنا أطلق على النهر اسمه الحالى.

وثامن هؤلاء الملوك خمِّيس [1] Chemmis من منف وقد حكم خمسين عاماً وابتنى أكبر الأهرام الثلاثة التى تعد من عجائب الدنيا السبع . وهى تقع فى الجانب المتاخم لليبيا على بعد ١٢٠ ستاد من منف و ٤٥ ستاد من النهر . وهى تملأ نفس الرائى عجباً ودهشة لضخامتها ودقة صناعتها . وأكبرها مربع القاعدة طول كل ضلع من أضلاعها سبعة بلترونات وارتفاعه أكثر

(١) هو خوفو ويسميه هيرودوت كيوبس ٣ . ١٢٤ ، ولقد وقع ديودور فى نفس الخطأ الذى وقع فيه هيرودوت فجعل بناء الأهرام الذى تم فى الأسرة الرابعة بعد رمسيس الثالث وهو من فراعنة الأسرة العشرين .

من ستة بلترونات ، وتتدرج مساحته فى الصغر حتى تصل إلى القمة التى طول كل ضلع فيها ست أذرع . والبناء كله مشيد من حجر صلد يصعب صقله ولكنه يبقى إلى الأبد . فما زالت الأحجار ثابتة فى مواضعها الأصلية حافظة لكيان البناء كله من التهدم ، مع أنه قد انقضى على بنائه ما لا يقل عن ألف عام كما يقول البعض ، أو أكثر من أربعمائة وثلاثة آلاف عام كما يقول البعض الآخر . ويقال إن الأحجار نقلت من مسافة كبيرة من بلاد العرب [1] ، وأن عملية البناء قد أجريت بوساطة تلال من الرمل لأن الروافع لم تكن قد اكتشفت بعد فى تلك الأيام . وأغرب ما فى الأمر أنه بالرغم من أن عملية البناء قد أجريت فى منطقة رملية كلها ، فليس هناك من أثر للتلال ، أو لعملية صقل الأحجار حتى إنه ليبدو كأن البناء لم تقمه تدريجاً يد الإنسان بل كأن أحد الآلهة أقامه دفعة واحدة وسط الرمال المحيطة به . ويحاول بعض المصريين أن يصوروا هذا الأمر كأنه إحدى العجائب ، فيقولون إن التلال صنعت من الملح والنطرون ولما أطلقت مياه النهر عليها أذابتها ومحتها نهائياً دون أن يكون للانسان ضلع فى الأمر . والواقع أن هذه الرواية عارية عن الصحة تماماً ، فإن العدد العظيم من العمال الذين أقاموا هذه التلال ، أرجعوها بأنفسهم إلى ما كانت عليه من قبل . فإن ستين وثلثمائة ألف رجل كانوا يعملون فيما يقال فى هذا البناء ، وقد أنجزوه بشق الأنفس فى عشرين عاماً .

(١) بلاد العرب تعنى كل المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ولكن الأرجح أن أحجار الأهرام اقتطعت من المنطقة المحيطة بها

٦٤ — ولما مات هذا الملك خلفه على العرش أخوه كفرن [١] Kephren وحكم ستاً وخمسين سنة، ويذهب البعض إلى أن الذى تولى الملك بعد خوفو ليس أخاه بل ابنه خابرياس Chabryas ، والإجماع على أن خليفة خوفو انتهج سياسته وابتنى الهرم الثانى وهو يشبه الأول من حيث المهارة الفنية ولكنه يقل عنه حجماً إذ أن طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ستاد واحد . ويدور أحد نقوش الهرم الأكبر حول المبالغ التى أنفقت فى بنائه وهو يظهرنا على أن أكثر من ستمائة وألف طالنت أنفقت على الخضروات والطهور اللازم للعمال . أما الهرم الثانى فخال من النقوش وبه درج محفور فى أحد جوانبه . وبالرغم من أن هذين الملكين قد ابتنيا الهرمين ليدفنا فيهما ، فلم يحدث أن دفن أحدهما فى هرمه . ذلك بأن المشاق التى تحملها القوم فى بنائهما ، وقسوة الملكين وعنفهما ، ألبت الشعب ضدهما فآلى أن يمزق جثتيهما إرباً ، وأن يلقى فى غيطه خارج القبور . ولذلك أوصى كل منهما أهله بدفنه عند موته سراً فى مكان مجهول .

تولى الملك بعد ذلك ميكيرينوس Mycerinus الذى يسميه البعض منقرع Mencherinus وهو ابن بانى الهرم الأكبر . ولقد شرع فى بناء هرم ثالث ولكنه مات قبل أن يتمه . وجعل طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ثلثمائة قدم وابتنى خمس عشرة طبقة من الواجهة الخارجية من الحجر

(١) هو خفرع كما ورد فى النقوش . ويسميه هيرودوت ٢ ، ١٢٧ كفرن كذلك .

الداكن [١] اللون الشبيه بأحجار طيبة . أما باقى الهرم فقد ابتناه من أحجار كالتى استعملت فى بناء الهرمين الآخرين . وهو يفوقهما جداً فى دقة صناعته وقيمة أحجاره ، ولو أنه يقل حجماً عنهما كثيراً . ويحدثنا النقش المكتوب على الجانب الشمالى منه أن بانيه منقرع . ولم يرض عن قسوة أسلافه واجتهد فى أن يحيا حياة فاضلة يصرفها فى خير شعبه ، ودأب على القيام بالأعمال التى اعتقد أنها تكسبه عطف شعبه . ويقولون إنه أنفق مبالغ طائلة من المال على تنظيم القضاء ، باذلاً هبات كبيرة للرجال الفضلاء الذين رأى أنهم لم يلقوا جزاء عادلاً على يد القضاء .

وهناك ثلاث أهرام أخر طول كل ضلع من أضلاعها مائة قدم . وهى تشبه الثلاث السابقة فى شكلها وليس فى حجمها . ويقال إن الملوك الثلاثة السابقين ابتنوها لأزواجهم . ولقد اتفقت الآراء على أن الأهرام لم تحظ فى مصر بذلك المركز الممتاز لضخامة بنائها وباهظ تكاليفها فحسب ، بل لدقة صناعة بنائها أيضاً . ومهندسو المشروع أولى بالإعجاب — فيما يقال — من الملوك الذين دبروا المال لإنجازه ، لأن المهندسين استنفدوا فى إنجاز المشروع أرواحهم وهممهم، بينما استغل الملوك الأموال التى ورثوها ومجهودات الآخرين . ولقد تضاربت الآراء بشأن الأهرام بين سكان البلاد كما تضاربت بين المؤرخين . فيعزو البعض بناءها إلى الملوك الذين ذكرتهم بينما يعزوه غيرهم إلى ملوك آخرين . فيقولون مثلاً إن الهرم الأكبر ابتناه

(١) الطبقات السفلى من الهرم الثالث من حجر الجرانيت الأحمر

أرمايوس Armaeus والثانى أموزيس Amosis والثالث إيناروس Inaros ويذهب البعض إلى أن الهرم الأخير كان قبراً للمحظية رودوبيس[١] Rhodopis . فقد تواترت الرواية بأن بعض حكام الأقاليم كانوا يهوونها وأنهم اشتركوا فى إقامة هذا البناء مدفوعين بغرامهم بها .

٦٥ — ارتقى العرش بعد هؤلاء الملك بوخوريس[٢] Bocchoris وكان زرى الهيئة جداً ، ولكنه فاق جميع من سبقه من الملوك فى حكمته . وبعد زمن طويل ارتقى عرش مصر سباكون Sabaconوهو حبشى الأصل ولو أنه بز أسلافه كثيراً فى التقوى والفضل . وقد نستشهد على طيبه قلبه بأنه ألغى أشد عقوبات القانون ونعنى بها عقوبة الموت ، فبدلا من أن ينفذ حكم الموت فى المدانين ، اضطرهم إلى أن يقوموا بأعمال عامة فى المدن مكبلين . وكذلك أقام جسوراً عديدة واحتفر قنوات كثيرة مفيدة ، فقد رأى أن يخفف من قسوة العقوبة على من حكم عليهم بها . وأن يضمن للمدن أعمالاً مفيدة بدلاً من العقوبة عديمة الفائدة . ويمكن أن نستدل على مبلغ تقواه من الرؤى التى عرضت له ، ومن قصة تنازله عن العرش ، فقد رأى فى منامه كأن إله طيبة ينبئه بأنه لن يتاح له أن يستوى على عرش مصر فى هناءة أو لأمد طويل إلا إذا شطر أجسام جميع الكهنة شطرين ، ومر مع

(١) رودوپيس معناها حمراء الوجنتين وهى كنية غانية من غوانى نوقراطيس خلبت لب خارا كسوس أخى الشاعرة سافو ، فنددت بها .

(٢) هو بوكنرانف حكم مصر من ٧٢٦ — ٧١٢ تقريباً ، وهو ثانى ملوك الأسرة الرابعة والعشرين .

حاشيته فى وسطها . ولما تكرر هذا الحلم استدعى الكهنة من جميع الأقاليم وقال لهم إن بقاءه فى البلاد قد أحفظ الإله وإلا ما أمره فى الحلم بشىء كهذا . ثم قال إنه يفضل أن ينزح عن البلاد دون أن يلوث نفسه ويؤثر أن يلقى بحياته فى يد القدر على أن يثير حفيظة ربه ، ويلوث نفسه بهذه الجريمة الشنعاء لقاء استمراره فى حكم مصر . وأخيراً سلم مقاليد الحكم لأهل البلاد وقفل راجعاً إلى الحبشة[١] .

٦٦ — وظل العرش شاغراً طيلة السنتين التاليتين ، ولما مال العامة إلى الفتن والحروب الأهلية تحالف أقوى اثنى عشر زعيماً ، واجتمعوا فى منف وعقدوا معاهدة ليرعوا الميثاق والوئام فيما بينهم ونصبوا أنفسهم ملوكاً . وحكموا البلاد وفقاً لعهودهم ومواثيقهم ، وحافظوا على صلات الود فيما بينهم مدة خمسة عشر عاماً . ثم شرعوا فى بناء قبر مشترك لهم ، فقد رأوا أنه كما رعوا الود فيما بينهم على قيد الحياة واكتسبوا مجداً متكافئاً يجب أن ترقد أجسادهم بعد الموت كذلك فى صعيد واحد ، وأن يقوم الضريح بعد إتمامه شاهداً جامعاً على مجد الذين يرقدون فيه . ولقد دفعتهم شدة حرصهم على بلوغ هذه الغاية إلى بذل أقصى الجهد ليفوق هذا البناء فى ضخامته كل ما سبقه من الآثار ، واختاروا له موقعاً فى الصحراء الليبية[٢] عند مدخل بحيرة موريس وشيدوا قبرهم بأحسن أنواع الأحجار . وقد اختطوه مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ستاد واحد . وزينوه بالزخارف وسائر

(١) قصة تنازل آخر ملوك الأحباش عن حكم مصر ، واردة فى النقوش القديمة ولكن الواقع أن تنازلهم كان تراجعاً أمام زحف الأشوريين

(٢) أى فى الجانب الغربى من النيل .

الأعمال الفنية حتى لم يدعو لخلفهم [1] مجالاً لمنافستهم ، نجد فيه بعد أن نعبر السور الخارجى بهواً تحيط به الأعمدة ، أربعون منها فى كل جانب ، وسقفه منحوت من حجر واحد ، مزخرف بتجاويف هندسية ، ورسومات مختلفة ، وبالبهو كذلك تذكار لمسقط رأس كل من الملوك ، وإن ما فيه من معابد وطقوس ، كلها مصورة ببراعة فى رسوم رائعة . ولقد كان تصميم البناء الذى وصفه هؤلاء الملوك باهظ النفقات وكبير الحجم — فيما يقال — إلى حد أنه لو لم يتركوا العرش قبل تمامه لقطعوا على غيرهم طريق منافستهم فى تشييد الآثار . ولكن حدث أنه بعد أن حكم هؤلاء الملوك مصر مدى خمسة عشر عاماً انتقلت السلطة إلى يد رجل واحد ، للأسباب التالية : زود أبسماتيك Psammetichus [2] السايسى — وهو أحد الملوك الاثنى عشر ، وصاحب السلطان فى المناطق المتاخمة للبحر — جميع التجار بالبضائع ، وخصوصاً الفينيقيين واليونانيين منهم . فتخلص بهذه الطريقة من منتوجات بلاده بربح ، واستورد عوضاً عنها منتوجات البلاد الأخرى ، فلم يربح ثروة طائلة فحسب ، بل كسب كذلك صداقة الشعوب وحكامها . فحسده الملوك الآخرون — فيما يقال — من أجل ذلك ، وشنوا عليه الحرب . ولكن بعض المؤرخين المتقدمين يروون قصة فحواها أن الوحى أنبأ هؤلاء القادة بأن أول من يسكب منهم قربان الخمر للاله فى منف من إناء برنزى سيصبح

(١) هذا هو التيه المذكور فى الفصل ٦١ وقد ابتناه امنمحعت الثالث من الأسرة الثانية عشرة

(٢) حكم أبسماتيك من سنة ٦٦٣ إلى سنة ٦٠٩ ق . م.

سيد مصر كلها . ولما ذهب أحد الكهنة ليحضر لهم من المعبد اثنى عشر إناء ذهبياً نزع أبسماتيك خوذته وسكب منها القربان . وبالرغم من أن سلوكه هذا قد أثار شكوك زملائه فى الحكم إلا أنهم لم يشاؤا أن يقتلوه وألزموه النفى وأن يقضى بقية حياته فى المستنقعات المتاخمة للبحر . وسواء قام النزاع من جراء ذلك أم غيرة وحسداً كما ذكرنا آنفاً ، فالواقع من الأمر أن أبسماتيك استدعى الجنود المرتزقة من قارية Caria وأيونية Ionia وانتصر على خصومه فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من المدينة التى تدعى موممفيس Momemphis وقتل بعض الملوك الذين تصدوا له ، وطارد البعض الآخر إلى ليبيا . ولم يصبح لهم بعد من الطول ما ينازعون به السلطان .

٦٧ — وبعد أن وطد أبسماتيك سلطانه فى المملكة بأسرها ، ابتنى البهو الخارجى فى الجهة الشرقية من معبد منف ، وسور المحراب ، واستخدم عوضاً عن الأعمدة تماثيل ضخمة طول الواحد منها اثنا عشر ذراعاً . وفضلاً عن المرتبات التى وعد المرتزقة بها ، فقد أجزل لهم العطاء وأفرد المنطقة التى تسمى « المعسكر » [1] لسكناهم ، وأقطعهم مساحات واسعة من الأرض إلى الجنوب قليلاً من فرع النيل البيلوزى ، ولما تولى أمازيس الملك بعد ذلك التاريخ بسنين عديدة نقلهم من ذلك الموضع وأسكنهم منف . ولما كان السلطان قد استقام لأبسماتيك بوساطة هؤلاء المرتزقة فقد آثرهم على غيرهم بالقيام على شئون الحكم ، واستمر على انتهاج

(١) اكتشف فلندرز بترى أحد هذه المعسكرات فى تل دفنة غرب القنطرة .

سياسة استخدام قوات كبيرة من الجنود المرتزقة . وحدث أنه عند ما قام بحملة إلى سوريا ، أكبر من شأن المرتزقة ، بأن عهد إليهم بالطعام ، وجعل موضعهم فى الجناح الأيمن ، أما القوات المصرية فقد صغَّر شأنها وجعل مكانها الجناح الأيسر من الفيلق . فأحفظت هذه الإهانة المصريين وكان عددهم يربو على المائتى ألف ، فشقوا عصا الطاعة ، وزحفوا على بلاد الحبشة عاقدين العزم على أن يفتحوا لأنفسهم بلاداً لهم وحدهم . فأوفد الملك أولاً بعض قواده ليعتذروا لهم عما لحق بهم من إهانة ، فلم يأبهوا برسله ، فتبعهم بنفسه فى جمهرة من أصدقائه فى زوارق . وبينما كانوا مصعدين فى النيل ، على وشك عبور الحدود المصرية ، توسل إليهم أن يثنوا عزمهم ، مذكراً إياهم بمعابدهم ومسقط رؤوسهم ، وأزواجهم وأطفالهم . فرفعوا عقيرتهم جميعاً صائحين ، ضاربين دروعهم بحرابهم ، وقالوا ما دام سلاحهم طوع أمرهم فسيجدون وطناً بسهولة ، ثم رفعوا أرديتهم وأشاروا إلى سوءاتهم قائلين ما دامت هذه لنا فلن نعدم الزوجات والأبناء . وبهذه الروح العاليـة ، مزدرين ما يضعه الآخرون فى المكان الأرفع من الأهمية ، استولوا على الجزء الأكبر من بلاد الحبشة ، واختصوا أنفسهم بجزء كبير توطنوا به . ولقد غضب أبسماتيك لهذا المسلك أشد الغضب ، ولـكنه نظم الأمور فى مصر ، وبذل عنايته فى تنمية الدخل الملـكى وعقد محالفة مع أثينا وبعض المدن اليونانية الأخرى ، وأحسن إلى الأجانب الذين نزحوا إلى مصر للاقامة فيها بمحض رغبتهم ، ولما كان شديد الإعجاب

بالثقافة اليونانية فقد نشأ أبناءه تنشئة يونانية . وبالجملة ، فقد كان أول ملك فتح كل[١] أسواق مصر للشعوب الأجنبية . وضمن للأجانب النازحين إلى مصر عبر البحار غاية الأمن . وقد حرَّم أسلافه من الملوك دخول مصر على الأجانب بأن قتلوا بعض النازحين إليها واستعبدوا البعض الآخر . ولقد كان عدم ترحيب المصريين بالأجانب سبباً فى أن صار ضلال بوسيريس مضغة أفواه اليونانيين فلم يراعوا جانب الحق فيما وصفوا من ضـلاله ، بل بولغ فيه إلى حد الخرافة لاستفحال الفوضى فى هذه البلاد .

٦٨ — وبعد أربعة أجيال من حكم أبسماتيك تولى أبريس[٢] Apries الملك مدة اثنين وعشرين عاماً . وزحف على قبرص وفينيقية بقوات برية وبحرية كبيرة ، فأخذ صيدا عنوة ، وألقى الرعب فى المدن الفينيقية الأخرى فوقعت فى يده . وبعد أن هزم القبرسيين والفينيقيين فى موقعة بحرية كبيرة غنم أسلاباً كثيرة ورجع إلى مصر . ثم أنفذ حملة كبيرة من بنى وطنه إلى طرابلس وبرقة . ولقد فقد الجزء الأكبر منها وشق الذين نجوا عصا الطاعة له وثاروا عليه لاعتقادهم أنه دبر هذه الحملة بغية القضاء عليها حتى يكون أكثر اطمئناناً فى حكم سائر المصريين . فبعث إليهم الملك

---

(١) يرى بعض النقاد أن النص يجب أن يتبع هنا فنقول « باقى » أسـواق مصر ، أى أن أبسماتيك فتح أولا الأسواق التى كانت تحت سيطرته ثم لما صارحا كما فتح للأجانب باقى أسواق البلاد

(٢) يرجح الـكثيرون أنه فرعون خفرع المذكور فى التوراة فى لرميا ٣٧ ، ٥ و ٤٤ ، ٣٠

بأمازيس [١] أحد أعيان المصريين رسولاً ، ولـكن هذا لم يعبأ بما أوصى به الملك من عقد صلح مع الثوار ، بل على العكس شجعهم على التمادى فى العصيان ، واشترك فى الثورة ، فانتخب هو نفسه ملـكاً ، وبعد زمن غير طويل ، انضم سائر المصريين إلى الثوار ، فاضطر الملك أبريس ، وقد تملـكته الحيرة ، إلى أن يركن إلى المرتزقة وكان عددهم ثلاثين ألف رجل تقريباً . ووقعت المعركة بينهم بالقرب من قرية مارية وكان النصر فيها حليف المصريين ، وأسر الملك أبريس وقتل شنقاً . أما أمازيس فقد نظم شئون الملك على الوجه الذى رآه مرضياً ، وحكم المصريين وفقاً للقوانين ، فنال تأييداً عظيماً ، وغزا مدن قبرص ، وزين كثيراً من المعابد بنصب جديرة بالذكر . ولقى حتفه بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة حين زحف قمبيز ملك فارس على مصر فى السنة الثالثة من الالمبيا الثالث والستين الذى فاز فيه فى سباق الأستاديون [٢] بارمينيديس Parmenides من أهل قارينة Camarina .

٦٩ — الآن ، وقد ألممنا إلمامة مرضية بأعمال ملوك مصر منذ أقدم العصور إلى موت أمازيس فسنرجىء البقية الباقية ، وسنسردها فى سياقها التاريخى . وسنتحدث الآن عن عادات المصريين باختصار مقتصرين منها على أشدها غرابة وأعظمها فائدة للقارىء . فكثير من العادات التى

(١) أحمس الثانى مؤسس الأسرة السادسة والعشرين حكم مصر من ٥٦٩ — ٥٢٦
(٢) مباراة فى السباق جرياً لمسافة ٦٠٦ ¾ قدماً وتعقد فى أولمبيا

نشأت فى مصر ، لم ينل تأييد أهل البلاد فحسب ، بل حظى بإعجاب اليونانيين الشديد ، ولهذا كان أعظم من امتازوا بالتفوق الذهنى شديدى الحرص على زيارة مصر ليتعلموا قوانينها ونظمها التى رأوها جديرة بالدرس . فبالرغم من الصعوبة التى كان الأجانب يلاقونها فى زيارة البلاد فى العصور المتقدمة لـما أسلفنا ذكره من الأسباب ، فقد حرص على زيارتها من القدماء أورفيوس والشاعر هوميروس ومن المحدثين فيثاغوراس Pythagoras من أهل ساموس Samos والمشرع سولون Solon وكثير غيرهم . ويدعى المصريون أنهم أول من عرف الحروف الهجائية ، ورصد النجوم . هذا إلى أنهم اكتشفوا النظريات الهندسية ، وأغلب الفنون ، وسنوا أقوم الشرائع . ويقولون إن أقطع دليل على صحة ذلك أن مصر يحكمها منذ أكثر من سبعمائة وأربعة آلاف عام ملوك جلهم من أبناء البلاد ، وأنها كانت أكثر بلاد المعمورة كلها خصوبة ، فلو لم يلتزم سكان البلاد أحسن التقاليد والقوانين ولم ينتهجوا أصلح سبل التربية والتعليم لـما كان الأمر كذلك فيما يزعمون . وسنضرب صفحاً عما لفقه هيرودوت [١] وبعض المؤرخين الآخرين عن مصر ، فهم عوضاً عن التزام الحقيقة ، آثروا عامدين الإغراب وابتكار الأقاصيص لتسلية القارىء . وسنسرد هنا ما احتفظ به الـكهنة المصريون فى سجلاتهم من روايات وقد محصناها بدقة .

٧٠ — فملوك المصريين لا يعيشون أولاً على نمط الحكام المستبدين

(١) قرظ ديودور هيرودوت فى الفصل السابع والثلاثين

فى البلاد الأخرى ، فيعملون ما يشاؤون تبعاً لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم ، لا فى حياتهم العامة فحسب ، بل فى حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك . فلم يكن للملك بين خدمه عبد واحد مشترى أو مولّد ، بل كانوا جميعاً من أبناء أشهر الكهنة ، وقد جاوزوا العشرين عمراً ، وتلقوا أعلى ثقافة فى البلاد . وهكذا لا يتاح للملك وقد حف به أنبل الرجال للعناية ببدنه ، وملازمته طوال النهار والليل، أن يأتى أعمالاً وضيعة . فما تمادى سلطان فى الغواية إلا كان له من وليجته من يقوم على إرضاء شهواته . وكانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن يعمل فى الوقت المخصص بالضبط ما يفرضه القانون لا ما تدفعه إليه نفسه . فقد كان عليه أولاً عند ما يوقظ فى الصباح المبكر ، أن يتسلم الكتب التى أرسلت إليه من جميع الجهات ، حتى يستطيع أن ينجز على الوجه الأكمل جميع أعماله ومهامه ، ويكون على علم تام بكل ما يحدث فى جميع أنحاء المملكة . وعليه بعد ذلك أن يستحم، وأن يلبس بزة فاخرة ، ويزين بالأنواط الملكية ، ثم يقرب القرابين للآلهة . وجرت العادة بأن يقف رئيس الكهنة ، عند ما تحضر العتائر إلى المذبح إلى جانب الملك ، ويصلى بصوت عال وقد أحاط بهما جمهورٌ غفيرٌ من المصريين فيدعو للملك بالصحة وسائر الأنعم ما دام منتهجاً سبل العدل إزاء رعيته . وكان من واجب رئيس الكهنة أن يعلن صراحة فضائل الملك واحدة فواحدة فيقول إنه يتقى الآلهة ، شديد الرحمة بالناس ، حليم ، عادل ،

كبير النفس ، منزه عن الخداع ، يبذل ماله بسخاء ، وبالجملة ، فهو قابض على زمام شهواته ، يجزى المسىء بأقل مما يستحق من عقوبة ويثيب المحسن بأوفى مما أسلف من إحسان ، وبعد أن يعد كثيراً مما شاكل هذه الفضائل ، يصلى الكاهن القائم بالصلاة من أجل الخطايا التى صدرت عن جهل ، منزهاً الملك عن اللوم ، ومستمطراً اللعنة والعقاب على خدامه الذين أفتوه بآراء خبيثة . ولقد كان الكاهن يقوم بذلك ليهدى الملك إلى التقوى ومخافة الله ، وليرشده إلى حياة ترضاها الآلهة ، لا عن طريق الزجر العنيف بل عن طريق المدح المستحب الداعى بصراحة إلى الفضيلة . وبعد ذلك حينما يفرغ الملك من فحص أحشاء الضحية ، ويطمئن إلى الفأل الحسن . يقرأ الكاتب بصوت مرتفع من الكتب المقدسة طرفاً من الحكم المفيدة ، وأعمال مشاهير الرجال ، حتى يتسنى لصاحب السلطان على البلاد بأسرها أن يتملى فى قلبه أحسن أصول الحكم فيهتدى إلى الخطة القويمة فى تدبير شئون الأقاليم . ولم يحدد له القانون وقت تصريف شئون الحكم ، أو عقد المحاكمات فحسب ، بل حدد له كذلك وقت نزهته ، واستحمامه ، واجتماعه بزوجته ، وبالجملة ، فقد خصص له وقتاً معيناً لكل شأن من شئون الحياة . وكان من عادة الملوك أن يتعاطوا اللحم الرخص فيأكلوا لحم العجول والأوز فقط ، ويشربوا قدراً معيناً من النبيذ ، لا يكفى لامتلائهم فوق الحد أو سكرهم .

وبالجملة فأسلوب حياتهم كان منظماً تنظيماً معتدلا إلى حد أنه يبدو

أن واضعه لم يكن مشرعاً بل أحسن الأطباء وضعه وصحة الملك هدفه الوحيد .

٧١ — وإذا بدا عجيباً أن الملك لم يتمتع بالحرية المطلقة فى اختيار طعامه اليومى ، فأشد عجباً من ذلك بكثير أنه لم يكن فى قدرته أن يقضى فى المخاصمات أو يصرّف ما يعن له من الأمور ، أو يقضى بعقوبة على أحدٍ من الناس مدفوعاً بكيد له أو غيظ منه ، أو بأى دافع ظالم آخر ، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة .

وبالرغم من التزامهم السنن التقليدية دائماً ، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن أن يغضبوا أو يحملوا ضغينة فى قلوبهم لأحد . بل على العكس رأوا أنهم يحيون أسعد حياة . فقد كانوا يعتقدون أنه عند ما يطلق غيرهم من الناس بدون روية العنان لنزعاتهم الطبيعية ، يأتون من الأعمال ما ينطوى على الخسائر أو المخاطر ، وأنه يحدث كثيراً أن يرتكب بعض الناس — مع علمهم بأنهم على وشك التردى فى الخطيئة — أعمالا وضيعة لوقوعهم تحت سيطرة الحب أو الكره أو غيرهما من العواطف الأخرى. بينما يقع الملوك — بانتهاجهم أسلوباً من الحياة يحبذه أحكم الناس — ولما كان الملوك يلتزمون جادة العدل إزاء رعيتهم فقد استشعر القوم نحوهم من الولاء ما يزيد كثيراً عما يكنونه لأهلهم من حب فلا يولى الكهنة ولا سكان مصر كافة نسائهم وأولادهم وسائر مقتنياتهم الثمينة من الاهتمام ما يولونه لسلامة الملوك ، ولذلك احتفظوا ردحاً طويلا من الزمان بالنظام السياسى

الذى وضعه الملوك الذين أتينا على ذكرهم ، وظلوا يتمتعون بحياة سعيدة جداً فى ظل هذه المجموعة من القوانين ، هذا إلى أنهم قهروا شعوباً كثيرة ، وجمعوا ثروات طائلة وزينوا بلادهم بمبان ومنشآت لا تضارع ، وجملوا مدنهم بشتى أنواع النصب الباهظة النفقات .

٧٢ — وتنهض الحفلات التى تقام فى مصر بعد موت الملك دليلاً قاطعاً على ولاء الشعب لحكامه . فإن ما يبعثه العرفان من تكريم يضفونه على ملك لا يشعر به ، ينطوى على برهان حقيق على إخلاصهم . وعندما يفارق أحد ملوكهم هذه الحياة الدنيا يعم الحزن المصريين جميعاً فيمزقون ملابسهم، ويغلقون معابدهم ويمتنعون من تقديم الضحايا للآلهة، ولا يحيون الأعياد اثنين وسبعين يوماً ، ويخرج الرجال والنساء جميعاً ، وقد لطخوا رؤوسهم بالطين ، وائتزروا فيما يلى الصدر بلباس من التيل الرفيع — فى جماعات مؤلفة من مائتين أو ثلثمائة — فينشدون مرتين فى اليوم المراثى ملتزمين الضرب ويرتلون المدائح للمتوفى ، ذاكرين فضائله ، ويصومون عن أكل اللحم والدسم ويمتنعون من تعاطى النبيذ وسائر أنواع الترف، ولا يرضى أحد منهم أن يستحم أو يتطيب أو ينام على فراش وثير، لا ولن يجرؤ على إتيان النساء ، بل يحزنون حزناً عظيما ويحدُّون طوال الفترة المذكورة ، كأن الواحد منهم قد فقد ابنه العزيز ، ويكونون فى هذه الأثناء قد جهزوا ما يلزم لإقامة الشعائر الجنائزية تجهيزاً رائعاً ، وفى آخر أيام الحداد يضعون النعش الذى يضم الرفات أمام مدخل القبر ، ويشكلون

— طبقاً للطقوس — محكمة لتنظر فيما قدم المتوفى من أعمال فى هذه الحياة الدنيا. وقد أباحوا لمن شاء أن يتهمه ، أما الكهنة فتأبنه معددة مناقبه وألوف الناس التى اجتمعت لتشيعه تنصت إليها وتشترك فى تأبينه ، هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياة مجيدة ، أما إذا كانت حياته على العكس وضيعة ، تصايحت الجماهير . وقد حرم كثير من الملوك حق الدفن الرسمى الذى تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب . ولذلك كان من يخلفونهم على العرش يقيمون العدل لا لما أسلفنا من أسباب فحسب بل خوفاً من العار الذى يلحق بأجسادهم بعد الموت ، ومن اللعنة الأبدية كذلك . هذه إذن أهم التقاليد التى تتصل بالملوك القدامى .

٧٣ — ومصر بأجمعها مقسمة إلى مديريات متعددة تسمى الواحدة فى اليونانية مقاطعة ، يعين لها مدير له حق الإشراف والمراقبة التامة فيها . وتنقسم البلاد فوق ذلك إلى ثلاثة أقسام كان أولها فى حوزة الكهنة[١] الذين كانوا يتمتعون باحترام عظيم بين الشعب ، لتفرغهم لأمور الدين ، ولما يبدونه لتفقههم من فارط الذكاء . وهم ينفقون من دخلهم هذا على جميع الضحايا التى تقرب فى مصر ، و يكفون مؤنة معاونيهم ، ويدبّرون حاجياتهم الخاصة ، وذلك للاعتقاد السائد بأن عبادة الآلهة يجب ألا ينالها التحريف ،

(١) جاء ذكر نظام الطبقات فى مصر فى هيرودوت ٢ ، ١٦٤ — ١٦٨ ، واسترابون ١٧ ، ١ ، وأفلاطون ، « تيماوس » ص ٢٤ ، وأيسقراط ، « بوسيريس » ١٥ ، ١٦ . وكلهم يجمعون على أن الطبقة الأولى مؤلفة من الكهنة والثانية من الجند .

و يتحتم أن تقوم بها دائما طبقة بعينها بأسلوب بعينه ، و ينبغى للذين يعنون بشئون الدين نيابة عن الجميع ألا تعوزهم ضرورات الحياة . وعلى العموم فقد كان الكهنة يتشاورون فى أمهات المسائل ، و يلازمون الملك ، تارة كمعاونيه وتارة كوزرائه ومعلميه ، وهم ينبئون الملك بالمستقبل بوساطة التنجيم والعيافة ، و يقرؤون له من سفر الأعمال فى الكتب المقدسة ما عساه أن يكون مفيداً ، وليس الحال هنا كما هو عند اليونان ، إذ يمثل رجلٌ واحدٌ أو امرأة واحدة هيئة الكهنوت ، بل يقف الكثيرون منهم حياتهم على العبادة وتقريب التضحيات للآلهة ، و يورثون أعقابهم نفس مهنتهم فى الحياة . والكهنة معفون من جميع الضرائب ، وهم يأتون بعد الملك فى الشهرة والسلطان . وكان القسم الثانى من نصيب الملك ، يستقى منه دخله الذى يموِّل منه الحرب ، و ينفق منه على بلاطه الرائع ، و يثيب الأبطال بمنح تناسب جدارتهم ، ولما كانت موارده هذه تفىء عليه دخلا كبيراً ، لم يرهق الناس بالضرائب . أما القسم الثالث فقد وُقف على الفئة التى يسمونها المحاربين وهى التى تقوم بالخدمة العسكرية .

والحكمة فى ذلك أنه ينبغى أن يكون المحاربون الذين يجازفون بأرواحهم أشد الناس تعلقاً بأوطانهم ، فيتحمسون بفضل هذه المنح العقارية فى مواجهة ما تنطوى عليه الحرب من أخطار . لأنه من السخف أن تكل سلامة الشعب بأسره إلى فئة ليس لها فى البلاد التى ستحارب من أجلها نصيب كفيل بإثارة نخوتها . هذا ولكن أكثر الاعتبارات أهمية أن

المحاربين إذا كانوا فى بحبوحة من الرزق أقبلوا على إنجاب الأبناء ، فيزيدون بذلك من تعداد الشعب إلى حد يجعل البلاد فى غنى عن استخدام الجنود المرتزقة . ولما كان المحاربون يرثون حرفتهم عن آبائهم ، فإن بطولة آبائهم تحفزهم إلى المجد ، ولما كانوا شديدى الاهتمام منذ طفولتهم بالأعمال الحربية ، فإنهم يشبّون أبطالاً لا تقهر فى ميدان الجرأة والحنكة .

٧٤ — وهناك ثلاث طبقات أخرى فى الدولة ، وهى الرعاة والفلاحون والعمال . فالفلاحون يؤجرون الأرض الخصبة الخاصة بالملك والكهنة والمحاربين نظير أجر زهيد ، وهم يقضون كل حياتهم فى فلاحة الأرض ، ويفوقون بكثير فلاحى سائر الشعوب مهارة . لأنهم يتدربون على الأعمال الزراعية منذ نعومة أظفارهم . وهم أيضاً أدق منهم جميعاً علماً بطبيعة الأرض وطرق ريّها ، ومواقيت البذر والجنى وسائر عمليات جمع المحصول . وهذه المعلومات استقوا بعضها من ملاحظات أجدادهم ، والبعض الآخر من تجاربهم الشخصية . وينطبق هذا الوصف كذلك على طبقة الرعاة ، فقد كانوا يخلفون آباءهم على حرفة رعى الماشية كما لو كان ذلك طبقاً لقانون المواريث . فيقضون حياتهم طولها فى الرعى ، وقد أخذوا عن أجدادهم معلومات كثيرة عن أحسن طرق رعى الماشية وتربيتها ، ووقفوا هم أنفسهم على معلومات غير قليلة لشدة شغفهم بفنهم . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً ، أن مربى الدجاج والأوز يحصلون لما امتازوا به من مهارة فنية لفرط ولعهم بصناعتهم ، على مقادير لا تحصى من الدواجن ، فضلاً عن الدواجن التى

تفقس بطريق التفريخ الطبيعى الذى يكتفى به سائر الناس . ذلك بأنهم لا يستخدمون الدواجن فى تفريخ البيض ، بل يقومون هم أنفسهم بذلك بطريقة صناعية عجيبة ، فيحاكون بما هم عليه من فطنة ومهارة قوى الطبيعة ومهارتها . ويلاحظ كذلك أن الناس فى مصر يبذلون الجهد فى الصناعة حتى تتقدم وترتقى إلى غايتها المرموقة . فمصر هى البلد الوحيد الذى لا يسمح فيه للصناع بممارسة عمل آخر ، أو التدخل فى شئون السياسة ، بل يلتزمون ما ورثوا عن آبائهم من حرف طبقاً لنصوص القانون ، حتى لا تقف منافسة المعلم أو مشاغل السياسة أو أى شىء آخر حجر عثرة فى طريق انكبابهم على صناعتهم . هذا فى حين أننا نجد الصناع فى الشعوب الأخرى موزعى الهمة بكثير من المشاغل فيدفعهم الجشع إلى عدم الاستمساك التام بحرفتهم ، فيتعلق البعض منهم بالزراعة ويساهم البعض الآخر فى التجارة ، ويمارس البعض الآخر حرفتين أو ثلاثة ، وفى البلاد الديمقراطية[1] يهرع الصناع فى جماعات كبيرة إلى المجالس التشريعية فيقوّضون دعائم النظام السياسى ، ويكتسبون المال من أيدى باذلى الرشاوى . أما فى مصر فيستهدف الصانع الذى يتدخل فى السياسة أو يمتهن أكثر من حرفة واحدة لأشد العقوبات . هذا إذن تقسيم الأمة إلى طبقات كما وضعه سكان مصر القدامى ، وذلك مبلغ استمساك كل فرد منهم بطبقته الخاصة التى ورثها عن أسلافه .

(١) يظهر أن ديودور يعنى آثينة على التخصيص .

٧٥ — وأولوا القضاء اهتماماً عظيماً معتقدين أن لأحكام المحاكم تأثيراً كبيراً على الحياة العامة . وذلك بسببين ، فقد كان من الجلى أن الوسيلة المثلى لردع الجرائم هى معاقبة الجناة والانتصار للمظلومين . لأنه إذا فقدت المحاكم هيبتها لدى الخارجين على القانون ، بعامل الرشوة أو مراعاة الخواطر ، تفشت الفوضى فى الحياة االعامة . وتوصلوا إلى غرضهم هذا بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين . فقد كانوا ينتقون من كل من هليوبوليس وطيبة ومنف عشرة قضاة ، وهذه الهيئة لا يمكن أن تعتبر أقل شأناً من مجلس الأريوباجوس فى أثينة أو مجلس الشيوخ عند الإسبرطيين . ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيساً للقضاة ، ثم ترسل المدينة قاضياً آخر ليشغل مكانه . وكان الملك يصرف للقضاة مرتبات تسد حاجتهم ، وتكفى لإقامة أودهم ، أما رئيس القضاة فكان يصيبه أضعاف هذا القدر . وكان من عادة كبير القضاة أن يحمل قلادة ذهبية يتدلى منها تمثال صغير من الأحجار الكريمة يسمونه « الحق » . وكان القضاة يأخذون فى النظر فى القضايا حينما يتقلد كبيرهم صورة الحق . وكانت القوانين كلها مدونة فى ثمانية كتب ، توضع بجانب القضاة .

وجرت العادة بأن يكتب المدعى شكواه بالتفصيل مبيناً كيف حدثت الواقعة ومبلغ الضرر ، فيأخذ المدعى عليه عريضة خصمه ، فيردّ على كل نقطة فيها دافعاً بأنه لم يرتكب هذا الأمر ، أو أنه ارتكبه ولكن لا إثم

فيه ، أو أنه أثِمَ حقاً ولكنه يستحق عقوبة مخففة . وبعد ذلك يفند المدعى أقوال خصمه مستنداً إلى نصوص القانون ، ثم يدفع المدعى عليه الاتهام مرة أخرى . وبعد أن يقدم كلا الخصمين العرائض التى كتباها إلى القضاء مرتين ، يتعين على القضاة الثلاثين حينئذ أن يتفقوا فيما بينهم على الحكم ، فيضع رئيس القضاة تمثال « الحق » على أحد جانبى الخصومة .

٧٦ — هذه إذن هى الطريقة التى اتبعها المصريون فى جميع محاكماتهم ، معتقدين أن الخصوم يلقون بمرافعاتهم ظلاً كثيفاً على الحق ، ذلك أن براعة الخطباء ، وسحر بيانهم ، ودموع الذين يستهدفون للخطر من المتهمين ، تدفع الكثيرين إلى التغاضى عن صرامة القانون ، وقسوة الحق . ومهما يكن من شىء فالملاحظ أنه كثيراً ما تخدع براعة المحامين رجالاً من أفاضل القضاة ، إما بخدعة ، أو بسحر البيان ، أو بإثارة مشاعر الرحمة فيهم . ومن ناحية أخرى ، فقد رأى المصريون أنه إذا قدم المتقاضون عرائضهم كتابة كانت المحاكمة دقيقة ، إذ تكون الحقائق المجردة فقط محل النظر . وبالأخذ بهذا النظام على الخصوص لا تكون اليد العليا للموهوب دون الخامل ، ولا للمحنك دون الغر ، ولا للكاذب الجرىء دون الصادق الحيى الطبع ، بل يلقى الجميع العدل على قدم المساواة ، لأن الوقت سينفسح على هذا النحو للخصوم لفحص حجج خصومهم ، وللقضاة للموازنة بين حجج جانبى الخصومة .

٧٧ — ونظن الآن ، وبعد أن تحدثنا عن تشريعهم ، أنه ليس من

غير المناسب فى بحثنا هذا أن نأتى على ذكر بعض القوانين المصرية التى امتازت بقدمها السحيق ، أو اتخذت وضعاً شاذاً ، أو يمكن أن تكون ذات فائدة لمحبى الاطلاع . فأولاً ، كان الموت عقوبة اليمين الكاذبة ، على اعتبار أنها تنطوى على جريمتين كبيرتين ، الكفر بالله وخرق أعظم ضمان للثقة بين الناس . وثانياً ، إذا رأى أحدٌ أثناء تجواله فى البلاد رجلاً يُقتَل أو يعانى على أى وجه أذى ما ، دون أن ينقذه ، وكان قادراً على ذلك ، استحق عقوبة الموت ، أما إذا لم يكن حقاً قادراً على مدّ يد المساعدة ، تحتم عليه دائماً أن يبلغ عن اللصوص ويقتفى أثر الجريمة . ومن تهاون فى ذلك ، وقد نص عليه القانون ، يجلد عدداً معيناً من الجلدات ، ويحرم الأكل بتاتاً ثلاثة أيام متوالية . ويلاقى أصحاب البلاغ الكاذب نفس العقوبة التى يستحقها المبلغ ضدهم لو أنه ثبتت إدانتهم . هذا إلى أنه على المصريين عموماً أن يقدموا لموظفى الحكومة كشفاً عن مصدر كسب كل منهم لمعاشه ، والموت بالضرورة عقوبة كل من يزور فى هذا الكشف ، أو يكون مورد رزقه حراماً . ولقد نقل صولون فيما يقال هذا القانون إلى أثينا حينما زار مصر . ونصت القوانين على أن الموت عقوبة كل من يقتل عمداً رجلاً حراً كان أم عبداً . وذلك لغرضين : أولهما ردع الناس كلهم عن الإثم بعقوبة لا تختلف باختلاف حظوظهم فى الحياة ، بل تبعاً لنياتهم فى أعمالهم ، وثانيهما تعويد الناس على أن الأولى بهم الامتناع بتاتاً عن الاعتداء على الأحرار . ولم تسن عقوبة الموت للآباء الذين يقتلون أبناءهم ،

بل فرض عليهم أن يظلوا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ سوياً حاملين جثة القتيل باستمرار ، تحت إشراف حراس رسميين . فلم يرَ المصريون أنه من العدل أن يحرموا الحياة أولئك الذين منوا بها على أولادهم بل رأوا العدل فى أن يصرفوهم عن مثل هذه الجرائم بعقوبة تبعث الألم والتوبة . أما الأبناء الذين يقتلون آباءهم ، فقد سنوا لهم عقوبة غريبة . فإن من تثبت إدانتهم بهذه التهمة تقتضب من أجسامهم بقصب مسنون قطعٌ بحجم الإصبع ، ويشوون أحياء على فراش من قتاد . فقد رأوا أن أشنع جرائم الإنسان أن يقضى بالقوة على حياة الذين منحوه الحياة . والنساء اللائى يقضى فيهن بالموت لا ينفذ فيهن الحكم إذا كنَّ حبالى قبل أن يضعن ، وقد نقل كثير من دول اليونان هذا القانون . فقد رأوا أنه من الظلم المحض أن يشارك الجنين البرىء أمه المذنبة فى جريرة ذنبها ، أو أن يقتص من اثنين لوزر واحد ، أو أن يتعرض الجنين لنفس عقوبة أمه مع أنه لا يعى شيئاً البتة ، فى حين كان ارتكاب الجريمة مع سبق الإصرار ، وأهم الاعتبارات كلها أنه من غير المفهوم أن يقضى بالموت على الجنين وهو ملك مشاع بين الأب والأم ، فى أن الوزر منسوب إلى المرأة الحبلى وحدها . ومن الجائز أن تعتبر القضاة الذين يبقون على حياة المجرم الذى أدين بجريمة القتل ، والقضاة الذين يقضون على حياة من لا ذنب لهم البتة ، سواء فى الجور . هذه إذن بعض القوانين المتعلقة بجريمة القتل وقد اشتهرت فوق كل شىء بإصابتها البالغة .

٧٨ — ولا ينص قانونهم العسكرى على عقوبة الموت جزاء لمن يفر من الجندية أو يعصى أوامر قواده ، بل عقوبته فقدان الاعتبار ، فإذا ما محا أحدهم عاره بأعمال البطولة ، رد له اعتباره كما كان . وهكذا جعل الشرع عقوبة فقدان الاعتبار أشد من عقوبة الموت حتى يعوّد الناس على النظر إلى العار باعتباره أعظم الشرور . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، رأى المشرع أن الذين يقضى فيهم بالموت لا يفيدون الحياة العامة بشىء ، بينما الذين يفقدون اعتبارهم قد يكونون مصدر خير كثير لحرصهم على استرداد اعتبارهم . أما الذين يفشون الأسرار للأعداء فقد قضى القانون بانتزاع ألسنتهم . والذين يزيفون النقود ، أو يطففون الموازين والمكاييل ، أو يزورون الأختام ، وكذلك الكتبة العموميون الذين يزورون فى متون السجلات ، أو يمحون شيئاً من نصوصها ، أو يبرزون عقوداً مغشوشة ، فقد قضى القانون بقطع كلا أيديهم جميعاً . وهكذا يحمل المجرم الذى ينزل العقاب بالعضو الذى استخدمه من ارتكاب جرمه جرحاً لا يندمل إلى يوم مماته ، فيكون عظة للآخرين بما لقى من جزاء ، ويصرفهم عن اقتراف أمثال هذه الجرائم . وكانت القوانين عندهم فيما يتعلق بالنساء صارمة كذلك . فقد كان الخصاء عقوبة كل من يغتصب المرأة الحرة ، فقد رأوا أن المغتصب بارتكابه جريمة واحدة يقترف ثلاثاً من أشنع الآثام : انتهاك الحرمة ، والزنا ، وخلط أنساب المواليد . أما إذا زنى أحدٌ بامرأة برضاها فقد قضى القانون بأن يجلد الرجل ألف جلدة ، وأن يجدع أنف المرأة ،

فقد اعتقدوا أن المرأة التى تزين للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات الجمال .

٧٩ — وتُنْسَبُ قوانين المعاملات لبوخوريس ، وهى تقضى من ناحية ، بأن من اقترض مالاً دون إيصال وأنكر الدين ، يُعفى من سداده إذا حلف اليمين على ذلك . والغرض الأول من هذا النص أن يستشعر الناس مخافة الله بتعليقهم أهمية عظمى على اليمين ، ذلك بأنه لما كان من الجلىّ أن الذى يحلف أيماناً كثيرة يفقد آخر الأمر ثقة الناس فيه ، فإن الجميع سيعلقون أهمية عظمى على اجتناب اللجوء إلى الحلف ، حتى لا يفقدوا ثقة الناس فيهم . والغرض الثانى للمشرّع من جعل الثقة بأكملها قائمة على الشرف هو تشجيع الكافة على أن يكونوا فضلاء فلا يُعرَفُ عنهم أنهم غير أهل للثقة . هذا إلى أن المشرّع رأى أنه من الظلم ألا يوثق بالذين كانوا محل ثقة دون أن يحلفوا اليمين إذا حلفوها فيما يتعلق بالدعوى نفسها . أما الذين يقرضون أموالاً بإيصالات فقد قضى القانون بألا يزيد رأس المال عن طريق الفائدة إلى أكثر من الضعف .

أما عن المدين ، فقد قضى المشرع بأن يكون استيفاء الدين من ممتلكات المدين وحدها ، ولم يجز قط أن يكون شخص المدين فى أى ظرف من الظروف رهينة لدينه (١) . فقد رأى أنه ينبغى أن تكون الأرض ملكاً

(١) كان القانون المصرى القديم ينص على استرقاق المدين إذا لم يف بدينه ، ثم ألغى هذا القانون ، ولكنه أصبح نافذاً فى القرن السادس ق . م . فى عهد أمازيس ، وألغى بعد ذلك إلى أن أحياه البطالة من جديد .

الذين يسطون عليها أو الذين أخذوها هدية من أصحابها ، أما الناس أنفسهم فيجب أن يكونوا ملكاً للدولة حتى تستأديهم مالها عليهم من واجبات فى الحرب والسلم جميعاً . فقد رأى أنه من السخف أن يُلقى الدائن القبض على جندى وفاء لدينه وهو يواجه الأخطار دفاعاً عن بلاده ، فتتعرض سلامة الجميع للخطر من جراء جشع بعض الأفراد . ويبدو أن صولون نقل هذا القانون كذلك إلى أثينا وسماه قانون « تخفيف الالتزامات »[١] وأعفى بمقتضاه الآثينيين كافة من سداد الديون التى كان ضمانها شخص المدين . ويلوم البعض — بحق — أغلبية مشرعى اليونان الذين حرّموا الاستيلاء على العُدَدِ والمحاريث وسائر الآلات الضرورية ضماناً للدين ، مع أنهم أباحوا ارتهان الأنفس التى تستخدم هذه الآلات .

٨٠ — وكان القانون الخاص باللصوص عند المصريين عجيباً كذلك . فقد فرض على من يريد احتراف هذه المهنة أن يقيد اسمه لدى رئيس اللصوص وأن يتعاقد على أن يبلغه بأمر المسروقات فوراً . وعلى ضحايا السرقة أن يبلغوا الأمر كذلك إليه مبينين المسروقات بالتفصيل ذاكرين المكان واليوم والساعة التى ارتكبت فيها السرقة ، وبهذه الطريقة يهتدون إلى كافة المسروقات بسهولة . وكان على ضحية السرقة أن يدفع رُبْعَ قيمة المسروقات لمجرد استرداد ما كان ملكاً له . ذلك بأنه لما كان من غير

(١) أصدر صولون هذا القانون سنة ٥٩٤ ق . م . وأعتق بمقتضاه كل من كان استرقاقهم بسبب عدم وفاء دين .

الممكن أن يمتنع الكافة عن السرقة فقد ابتكر المشرّع طريقة يمكن بوساطتها استرداد جميع المسروقات مقابل فدية صغيرة . ويتخذ الكاهن فى مصر زوجاً واحدة أما سائر الرجال فيتخذون من الأزواج ما يشتهون . والآباء ملزمون بتربية أولادهم جميعاً[١] لزيادة تعداد السكان . فقد رأوا أن ذلك يزيد عمار البلاد والمدن . وهم لا يعتبرون أى ولد ابناً غير شرعى ولو كان ابن أمة مشتراة ، وبالجملة فهم يعتبرون الأب وحده مسئولاً عن إنجاب الأطفال ، أما الأم فتزود الجنين بالغذاء والجِنّة ، ويدعون الشجر الذى يحمل الثمر ذكراً والذى لا يحمل ثمراً أنثى بعكس الاصطلاح اليونانى .

وربى المصريون أبناءهم بيُسر واقتصاد فوق الإدراك ، فهم يقدمون لهم عصيدة مصنوعة من أى مادة رخيصة متوفرة ، وسوق نبات البردى التى يمكن أن تشوى على النار ، وجذور وسوق النباتات المائية ، بعضها نِئٌ وبعضها مطبوخٌ والبعض الآخر مشوى . ولما كان معظم الأبناء يمضون شبابهم لحسن مناخ البلاد حفاة عراة ، فإن جميع ما يتحمله الآباء من نفقات إلى أن يبلغ الابن أشده لا يزيد عن عشرين دراخمة . وهذا أهم الأسباب الرئيسية التى أصبحت مصر من أجلها بلاداً ممتازة بوفرة عدد سكانها ، وإلى تلك الحقيقة الأخيرة يرجع السبب فى أن مصر تضم عدداً كبيراً جداً من الآثار العظيمة .

(١) يعنى أن وأد الأطفال بتركهم فى العراء ، وقد كان داء فاشياً فى بلاد اليونان ، كان محرماً فى مصر .

٨١ — ويعلّم الكهنة أبناءهم نوعين من رسم الحروف ، الرسم الذى يدعى « الكتابة المقدسة » والرسم الذى يستعمل فى العلوم الأكثر شيوعاً[١] . وهم يبذلون جهدهم بنوع خاص فى علم المساحة والحساب . وذلك لأن النهر يغيّر وجه الأرض كل عام بطرق مختلفة ، ويثير المنازعات بين الجيران على الحدود . وليس من السهل حسم هذه المنازعات على وجه الدقة إلا إذا اهتدى المساح إلى الحقيقة بخبرته وفنّه . أما الحساب فيفيدهم فى تدبير شئونهم اليومية وفى تطبيق نظريات المساحة ، والحساب إلى جانب ذلك ، ليس قليل النفع للذين ينصرفون إلى علم الهيئـة . فاهتمام المصريين بأوضاع النجوم وحركاتها أكبر مما يوليها أى شعب آخر من الاهتمام . فهم يحتفظون بأزياج عن كل واحد منها منذ عدد لا نتصوره من السنين . ولما كانوا شغوفين بهذه الدراسة منذ عهود سحيقة القدم ، ورصدوا باهتمام عظيم حركات الأجرام ومداراتها ومواضعها وقدرة كل منها على خلق الكائنات الحية ، وتأثيرها الحسن والسيِّئ عليها ، فكثيراً ما تكهنوا بما سيقع للناس من حوادث ، وفى غير قليل من المناسبات تنبأوا بفساد المحصول أو على العكس بوفرته أو أن الطاعون سيتفشى فى الناس والماشية جميعاً ، وأتاح لهم رصد النجوم لآماد طويلة علماً سابقاً بالزلازل والفيضانات وظهور المذنبات وجميع الظواهر التى رأى الناس أنها

(١) كان للمصريين ثلاثة أنواع من الكتابة : الهيروغليفية ، والهيراطيقية ، والديموطيقية ، ولكن ديودور ، وشأنه فى ذلك شأن هيرودوت ، لم يستطع أن يفرق بين الرسمين الأولين .

مما لا يُتَكهن به . ويدّعى المصريون أن الكلدانيين فى بابل جالية مصرية ، وأنهم مدينون بشهرتهم فى علم الهيئة للعلم الذى أخذوه عن الكهنة المصريين. أما سائر أهل مصر فيتعلمون من آبائهم أو أقربائهم الصناعات اللازمة لضرب من ضروب الحياة المختلفة ، كما أسلفنا فى ذلك القول[١] . أما القراءة والكتابة فيتعلمون منها نذراً يسيراً ، وهذا لا يجرى على الجميع ، بل يسرى على أولئك الذين يمارسون الصناعات بالتخصيص . ولم يجر العرف بينهم بأن يتربوا على الرياضة البدنية[٢] والموسيقى ، ذلك بأنهم يعتقدون أن الأحداث لا يكتسبون الصحة بتمريناتهم اليومية فى منتديات الألعاب الرياضية ، بل يصيبون قوة عارضة قريبة الزوال ، أما الموسيقى فقد كانت فى رأيهم عديمة الفائدة ، بل ضارة إذ أنها فى الواقع تدخل التخنث على السامعين .

٨٢ — وعالجوا أجسامهم توقياً للأمراض بالحقن والحمية والمقيئات يتناولونها أحياناً كل يوم ، وأحياناً أخرى بعد ثلاثة أو أربعة أيام . فهم يقولون إن الجزء الأكبر من مجموع الغذاء الذى نتناوله زائد عن الحاجة ، وأنه يولّد الأمراض ، وإذن فالعلاج الذى ذكرنا يستأصل المرض ويضمن الصحة . وفى أثناء الحملات الحربية ، أو الرحلات إلى داخل البلاد ، يعالج الجميع دون أن يُطالَب أحدٌ بأجر ، ذلك أن الأطباء يتقاضون معاشهم

(١) راجع الفصل ٤٣ ، ٧٠ ، ٧٤

(٢) أشار هيرودوت ٢ ، ٩١ إلى مباراة رياضية فى أخميم .

من المحكومة ، وهم يصفون العلاج طبقاً لأصولٍ مكتوبة ، وضعتها طائفة من مشاهير الأطباء المتقدمين . وإذا أمعن الطبيب النظر فى الأصول المثبتة فى النصوص المقدسة واتبعها ، ولم يستطع مع ذلك أن ينقذ المريض فلا جناح عليه ، وهو براء مما قد يتهم به ، أما إذا انتهج نهجاً يناقض الأصول فيقدم إلى المحاكمة وعقوبته إذا أُدين الموت . فقد رأى المشرع أن قليلين من عام أن يكونوا أكثر علماً من الأصول التى وضعها أئمة الصناعة وظلت مرعية منذ قرون عديدة .

٨٣ — أما الحيوانات المقدسة فى مصر ، فهى ظاهرة تبدو بالطبع غريبة للكثيرين ، وجديرة بالبحث والتمحيص . فالمصريون يبالغون فى تقديس بعض الحيوانات ، لا وهى فى قيد الحياة فحسب ، بل بعد مماتها أيضاً . وهذه الحيوانات هى القط ، والنمس ، والكلب ، والصقر ، والطائر الذى يسمونه الأيبس (أبو منجل) ، يضاف إليها الذئاب والتماسيح وكثيرٌ غيرها مما يشاكلها . وسأحاول أن أذكر أسباب هذه العبادة بعد أن أتحدث أولاً باختصار عن هذه الحيوانات نفسها . يوقف أولاً على كل نوع من الحيوانات المقدسة أرض تكفى غَلَّتُها للعناية بها وتغذيتها . فالمصريون يوفون النذور من أجل أبنائهم إذا نجوا من مرض فيحلقون رؤوسهم ويزنون الشعر بفضة أو ذهب ويهبون زنته للذين يقومون على خدمة الحيوانات المذكورة . والذين يرعون الصقور يقطعون لها اللحم شرائح ، وينادونها بأعلى صوتهم ، ويظلون يلقون الشرائح إليها وهى محلقة إلى أن تلتقطها ، أما

القطط والنموس فينبصون لها ويطرحون على الأرض الخبز الملوّث باللبن ، أو يقطعون لها السمك النيلى ويطعمونها إياه نيئاً . وهكذا يقدِّمون الغذاء المناسب لكل نوع من الحيوانات الأخرى . ولا يتخلى المصريون مطلقاً عن تأدية شعائر هذه الحيوانات ، ولا يخجلون من أن يراهم الناس يؤدونها ، بل على العكس ، يتيهون بها كبراً كما لو كانوا يؤدون أقدس شعائر الآلهة . ويطوّفون فى المدن والقرى حاملين شارات خاصة ، وعند ما يرى المارة من بعيد لأى حيوان تقام الشعائر ، يخرون له سجداً ويتعبدون . وعندما يموت أحدُ هذه الحيوانات المذكورة ، يلفونه فى سندس ويضربون صدورهم معولين ، ويحملونه ليحنط . وبعد أن تعالج الجثة بزيت الأرز وببعض المواد الأخرى التى لها خاصة إكسابها رائحة ذكية ، وحفظها وقتاً طويلاً ، يضعونها فى تابوت مقدس .

ومن يقتل عامداً أحد هذه الحيوانات يلاق الموت ، أما من يقتل قطاً أو أبا منجل فسواء قتلها عامداً أو غير عامدٍ فالموت نصيبه على كل حال ، إذ يهجم العامة على المذنب ويسومونه سوء العذاب دون محاكمة فى بعض الأحيان . وإذن فكل من يرى واحداً من هذه الحيوانات ميتاً ، يبتعد إلى مكان قصى ويصيح ويولول مشهداً الناس ، خوفاً من مثل هذا المصير ، على أنه عثر على الحيوان وقد نفق . ولقد امتزج الخشوع لهذه الحيوانات بقلوب العامة وظلت نفوسهم متشبثة بأمر عبادتها إلى حد أنه فى الفترة التى سبقت منح الرومانيين مليكهم بطليموس لقب « صديق روما » ، حدث

أن قتل أحد الرومان قطة ، فهجم العامة على بيت الجانى ، بالرغم من أن الجمهور كان يبذل قصارى جهده لاسترضاء البعثة الموفدة من إيطاليا ، وكان لخوفه شديد الحرص على أن لا يزودها بذريعة واحدة للشكوى أو إعلان الحرب عليهم ، فلم يجْدِ الموظفون الذين أرسلهم الملك للتوسط ، ولا ما كان يستشعره الجميع نحو روما من خوف ، فى نجاة الرجل من العقاب ، هذا مع أنه ارتكب هذه الفعلة غير عامدٍ . وهذه القصة التى رويناها لم تأتنا عن طريق السماع ، فقد شاهدنا نحن هذه الواقعة أثناء زيارتنا لمصر .

٨٤ — وقد تبدو هذه القصة للكثيرين غير معقولة وقريبة من الخرافة ، وستبدو القصة التى ستعقبها أكثر غرابة . إذ يحكى أن القحط هصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً ، ولكن أحداً منهم لم يتهم — مجرد تهمة — بتناول أحد الحيوانات المقدسة . بل فضلاً عن ذلك ، فإن البيت الذى يُعثر فيه على كلب ميت ، يحلق سكانه جميعاً أجسامهم كلها ويحدّون . وأشد من هذا غرابة ، أنه إذا اتفق أن كان مخزوناً فى الغرفة التى مات فيها واحدٌ من هذه الحيوانات نبيذٌ أو خبزٌ أو شيء ما من ضرورات المعيشة ، فإنهم لا يفكرون مطلقاً فى استعماله بعد ذلك فى غرضٍ ما . وإذا كانوا فى حملة حربية فى مكان ما من بلاد أجنبية ، افتدوا القطط والصقور وأحضروها إلى مصر وهذا دأبهم حتى لو كانت مؤنهم على وشك النفاد .

ومن السهل وصف ما يصنعون هنا للعجل أبيس فى منف ، والعجل منيفيس فى هليوبوليس والجدى فى منديس والتمساح فى بحيرة مُوريس والأسد الذى يبقونه فى المدينة التى تسمى لينوبوليس (مدينة الأسد) وكثيرٍ غيرها . ولكن من الصعب أن يصدق ما تقول من لم ير ذلك رأى العين . فالمصريون يبقون هذه الحيوانات فى حُجُرات مقدسة ، ويقوم على خدمتها كثيرٌ من الأعيان ، ويقدمون لها أفخر الطعام . وهم يدأبون على تزويدها بالقمح المطحون أو المجروش المغليّ فى اللبن ، وكل أنواع الفطير الممزوج بالعسل ، ولحم الأوز مطبوخاً ومشوياً . أما الحيوانات آكلة اللحوم ، فيصيدون لها طيوراً كثيرة ويلقونها إليها . وبالجملة فهم يبذلون قصارى جهدهم فى تقديم أفخر الطعام إليها ، ولا ينفكون يهيئون لها الحمامات الساخنة ، ويعطرونها بأحسن الطيب ، ويحرقون لها جميع أنواع البَخُور الذكى ، ويوفّرون لها أغلى السُرُر والحلى النفيسة ، ويفرغون وسعهم لتمكينها من معاشرة بعضها البعض وفق سنن الطبيعة ، فيبقون مع كل واحدٍ من هذه الحيوانات أحلى الإناث من نوعه ، ويسمونها السرايا ، ويبذلون فى خدمتها أبهظ التكاليف وأشق الخدمات . وإذا مات أحد هذه الحيوانات حزنوا عليه حُزن من ثكلوا أولادهم الأعزاء . ولا ينفقون على دفنه قدر طاقتهم بل يسرفون فى ذلك منفقين أكثر مما ملكت أيديهم بكثير . فقد حدث — مثلاً — بعد موت الإسكندر ، وبعد أن صارت مصر فى حوزة بطليموس بن لاجوس مباشرة ، أن أسن العجل أبيس ونفق ، فأنفق الموكّلون به فى

دفنه كل الأموال الطائلة التى كانت قد تكدست لكفالته واقترض فوقها بطليموس خمسين طالنطاً من الفضة . وأدهى من ذلك أن بعض الموكلين بهذه الحيوانات أنفق على دفنها فى أيامنا هذه ما لا يقل عن مائة طالنط .

٨٥ — وينبغى الآن أن أضيف إلى ما تقدم وصف باقى الحفلات التى تقام للثور المقدس الذى يسمونه أبيس . فعند ما ينفق هذا الثور ويودع قبره فى حفل رائع ، يبحث الكهنة القائمون على هذا الأمر عن عجل فى جسمه سمات مشابهة لسمات سلفه الراحل . وعند ما يقعون على بغيتهم ، يرفع عن الشعب الحداد ، ويقود الكهنة المختصون العجل إلى نيلوبوليس (مدينة النيل) Nilopolis أولاً حيث يعلفونه أربعين يوماً ، ثم يودعونه غرفة مذهبة من سفينة حكومية ويزفونه — كأنه إله — إلى معبد هيفايستوس فى منف. وفى هذه الأيام الأربعين يسمح للنساء وحدهن برؤيته فيقفن فى مواجهته ويرفعن أثوابهن ، ويكشفن عن عوراتهن . أما فى سائر الأيام فقد حظر عليهن التوجه إلى حضرة هذا الإله . ويقول البعض إن السبب فى تقديس الثور أن روح أوزيريس انتقلت بعد موته إلى الثور . ولذلك ما زالت إلى يومنا هذا تنتقل دائماً إلى سلالة هذا الثور أثناء تجلى أوزيريس . ويرجع آخرون السبب إلى أنه عند ما مات أوزيريس على يد طيفون ، جمعت إيزيس أجزاء جسمه فى بقرة من الخشب ،

ملفوفة فى قماش من التيل الرفيع ، ومن هنا سميت المدينة عندهم بوسيريس (١) .

وهناك روايات كثيرة أخرى حول أبيس ، ولكنى أعتقد أن الأمر يطول بنا لو سردناها كلها .

٨٦ — إن طقوس المصريين فى عبادة الحيوانات غريبة لا يمكن تصديقها ، وهى مصدر حيرة كبيرة لمن يبحثون عن أسبابها وأصولها . ولكهنتهم فى هذا الأمر عقيدة سرية ، أسلفت ذكرها فيما أوردته عن معتقداتهم الدينية . أما سواد المصريين فلهم فى عبادتها أسباب ثلاثة : أما أولها فخرافى محض أليق بسذاجة العصور المتقادمة . فيقولون إن الآلهة التى وُجدت منذ البدء كانت قليلة العدد ، فغلبها على أمرها مَرَدَة الأرض بكثرة عددهم وبغيهم ، فاتخذت الآلهة صور بعض الحيوانات ، فنجت بهذا الأسلوب من توحشهم وبطشهم . ولما سيطر الآلهة بعد ذلك على كل ما فى العالم ، قدسوا الحيوانات التى كانوا قد اتخذوا صورها ، وعلموا الإنسان أن يرعاها ببذخ فى حياتها ، ويودعها القبور بعد مماتها ، عرفاناً منهم بصنيع الحيوانات التى كانت فى البدء سبباً فى سلامتهم. وثانى أسبابهم أن المصريين فى العصور القديمة هزمهم جيرانهم فى مواقع عديدة لانعدام النظام فى جيشهم ، ففكروا أن يحملوا أعلاماً على رأس كل فرقة ، وجعلوا

---

(١) البقرة فى اليونانية « بوس » . ولكن بوسيريس معناها مدينة أوزيريس وهناك مواضع كثيرة بهذا الاسم .

هذه الأعلام على صور الحيوانات التى تُعبَدُ الآن ، وكان القادة يحملونها مثبتة فى أسنة رماحهم . فعرف كل فرد — بهذه الطريقة — إلى أىّ فرقة ينتمى . ولما كان ما نتج عن ذلك من حسن النظام قد ساعد كثيراً على انتصارهم ، فقد ظنوا أن الحيوانات هى السبب فى إنقاذهم ، وأرادوا أن يعرفوا لها هذا الصنيع ، فسنوا سنةً ألا يقتلوا واحداً من الحيوانات التى اتخذوا صورتها يومئذ ، بل يعبدونها ويولونها ما وصفنا من رعاية وتعظيم .

٨٧ — وثالث ما يأتون به من أسباب تقديس الحيوانات، هو ما يؤديه كل نوع منها من خدمات فى سبيل المجتمع الإنسانى من ناحية والإنسان من ناحية أخرى . فالبقرة — مثلاً — تلد الثيران التى تفلح الأرض وهى نفسها تحرث الأرض الرخوة ، أما الأغنام فتلد مرتين فى السنة وتهىءُ لنا بأصوافها أسباب الوقاية والزينة . وتعد لنا بألبانها وجبنها طعاماً شهياً وافراً . أما الكلب فمفيد فى الصيد وفى حراسة الإنسان ، ولذلك يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس . ويقول البعض إن الكلاب قادت إيزيس فى بحثها عن جثة أوزيريس ، وذادت عنها الحيوانات المفترسة وعابرى السبيل ، وساهمت — برًّا بها — فى البحث عن جثة أوزيريس نابحة طوال الوقت . ومن هنا جرت العادة بأن يتقدم الكلاب الموكب فى عيد إيزيس، فهذا شاهدٌ يأتى به واضعو هذه السنّة

على المِنَّة التى أسداها هذا الحيوان فى قديم الزمان . وللقطط استعداد خاص لإبادة الناشر القتّال وغيره من الزواحف السامة . أما النمس فيترصد التماسيح حتى تضع بيضها فيهشمه ، وهو يقوم بهذا العمل بعناية واهتمام دون أن يكون له أية فائدة من ورائه . ولو لم يكن هذا دأبه لأصبح النهر غير صالح للملاحة لكثرة ما يفقس فيه من التماسيح . ويقتل النمس أيضاً التماسيح نفسها بطريقة غريبة لا يمكن تصورها . فعند ما يرقد التمساح على شط النهر فاغراً فاه ، يتمرغ النمس فى الوحل ويقفز من فم التمساح إلى جوفه ، ثم ينهش أحشاءه بسرعة وينفذ إلى الخارج سالماً ، تاركاً التمساح جثة هامدة فى الحال . أما فى الطير فأبو منجل يفيد فى إبادة الحيات والجراد واليرقات ، والصقورُ تفيد فى إبادة العقارب والحيات القرّنات والحشرات الصغيرة السامة الشديدة الفتك بالإنسان ، ويقول البعض إن تقديس الصقور يرجع إلى أن العرّافين يستخدمونها فى التنبؤ للمصريين بالغيب ، بينما يقول البعض الآخر إنه فى العصور المتقادمة حمل الصقر للكهنة فى طيبة كتاباً مربوطاً بخيط أحمر يشتمل على طقوس خدمة الآلهة وعبادتها . ومن هنا كان الكهنة المقدسون يضعون خيطاً أحمر وريشة صقر فوق رؤوسهم . ويقدس أهل طيبة النسر ويعتبرونه طيراً ملكياً جديراً بزيوس .

٨٨ — ويؤله المصريون الجدى كما يقدّس اليونان بريابوس (١) Priapus

---

(١) بريابوس : إله القوى الطبيعية المخصبة فى الإنسان والحيوان والنبات ، وكان اليونانيون يصورونه فى هيئة جدى .

من أجل ذَكَرِه فيما يقال ، لأن الجدى شديد الميل للجماع ، ويلاقى ذكره ما هو أهل له من تعظيم ، ذلك بأنه السبب الرئيسى فى إنجاب مملكة الحيوان . وبالجملة ، فليس ذلك وقفاً على المصريين وحدهم ، فشعوبٌ غير قليلة أخرى تقدس الذكر فى طقوسها ، ذلك بأنه السبب فى ظهور الكائنات الحية . والكهنة الذين يخلفون آباءهم على الوظائف الكهنوتية يدخلون بادىء ذى بدء فى دين هذا الإله . ولهذا السبب عبد الناس — فيما يقال — بان[1] Pan والساتير[2] Satyri . ولذلك تقام لها فى المعابد غالباً تماثيل منتصبة الذكر قريبة من هيئة الجدى . لأن المشهور عن هذا الحيوان أنه بالغ الشهوة للجماع ، فالمصريون بتصويرهم هذه الآلهة على هذا النحو يقدمون الشكر على كثرة نسلهم . وهم يعبدون الثيران المقدسة وأعنى هنا أبيس ومنيفيس كآلهة كما أمر أوزيريس لسببين : فائدتها للزراعة ، ولأن شهرة الوقوع على الحروث تنتقل بفضل مجهوداتها من السلف إلى الخلف على طول الزمان .

ولقد كانت التضحية بالثيران الضاربة إلى الحمرة جائزة لما يعتقدون من أن طيفون الذى تآمر ضد أوزيريس ولاقى جزاءه على يد إيزيس لقتله زوجها ، كان لونه ضارباً إلى الحمرة . ويقال إن الملوك فى العصر القديم

(١) إله الماشية والرعاة عند اليونانيين ويمثلونه فى هيئة رجل له قرنان ورجلا جدى.

(٢) يختلف الساتير عن البان فى أنه لا قرون له .

كانوا يضحون على قبر أوزيريس بمن كان على لون طيفون من الرجال[1] . وقليل من المصريين من يضرب لونهم إلى الحمرة ، أما أكثر الأجانب فعلى هذا اللون . ولذلك شاعت بين اليونانيين قصة قتل بوسيريس للأجانب . ولكن لفظ بوسيريس ليس علماً على ملك بل هو لفظ يطلق على أوزيريس الذى كان يسمَّى بوسيريس فى لغة أهل البلاد .

ويقال إن الذئاب قدِّست لشدة شبهها بالكلاب ، فالذئب والكلب يختلفان اختلافاً يسيراً فى الطبائع ويلدان بالتزاوج فيما بينهما . وللمصريين فى تقديس هذا الحيوان سبب آخر ولكنه خرافىٌ . فهم يقولون إنه فى العصر القديم ، لما أزمعت إيزيس مع ابنها حورس أن تناهض طيفون ، حدث أن انبعث أوزيريس من العالم السفلى فى صورة ذئب ليساعد ابنه وزوجه ، فلما قتل طيفون أشار هازموه بتقديس الحيوان الذى استتبع ظهورُ وجهِه النصر . ويذهب البعض إلى أنه لما سار الأحباش بجيش إلى مصر تألفت رعالٌ كبيرة من الذئاب وتعقبت الغزاة إلى خارج البلاد فيما يلى المدينة التى تسمى إلفنتين ولذلك سمى هذا الإقليم « إقليم الذئاب » وأولوا هذا الحيوان ما ذكرنا من تقديس .

٨٩ — بقى علينا أن نتحدث عن تقديس التماسيح ، فقد حار أكثر الكتاب فى أمر هذه العبادة . فهذه الضوارى تفترس الإنسان ،

(١) أنكر هيرودوت ٢ ، ٤٥ أمر تضحية المصريين بالرجال ، ولعله لم يشاهدها أثناء إقامته . ولكن نحر الأسرى للآلهة مصور فى آثار الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة .

فكيف يسنّ القانون عبادتها وهى توقع هذه الأضرار الشنعاء ؟ ويرد المصريون على ذلك بأن النيل وحده لا يؤمن سلامة البلاد ، بل يؤمنها أكثر من النيل بيعيد ما فيه من تماسيح وهكذا لم يجرؤ قراصنة بلاد العرب وليبيا على عبور النيل خوفاً من ضواريه الكثيرة . وما كان هذا ليحدث لو شُنَّت الحرب على التماسيح وأبيدت عن آخرها بما ينصبه الصيادون من شباك فى النهر. وثمة رواية أخرى تحاك حول هذه الحيوانات، إذ يزعم البعض أن أحد الملوك القدماء المسمى مينا تعقبته كلابه الخاصة ، فاحتمى منها فى البحيرة التى تسمى موريس وهناك انتشله تمساح بطريقة عجيبة ، وحمله عبر البحيرة إلى الضفة المقابلة . وأراد الملك أن يعرف للحيوان صنيعه فى إنقاذه ، فأنشأ مدينة فى المنطقة المجاورة للبحيرة وسمّاها كروكوديلوبوليس « مدينة التماسيح » وأوصى أهل البلاد بتقديس هذه الحيوانات كآلهة ، ووقف البحيرة على إطعامها ، وشيّد هناك كذلك قبراً لنفسه على شكل هرم ذى أربع أضلاع ، وابتنى أيضاً قصر التيه[1] الذى نال إعجاب الجميع . ويقص المصريون روايات أخرى مثل هذه فيما يتعلق بسائر عباداتهم ، ولكن الأمر سيطول بنا إذا سردناها واحدة فواحدة .

أما أن المصلحة العامة كانت رائدهم فيما التزموا من عادات فأمر جلىّ للكافة من امتناع بعضهم من تعاطى كثيرٍ من المأكولات التى تنتج فى إقليمهم ، فقد كان بعضهم يمتنع بتاتاً من تذوق العدس أو الفول أو الجبن أو البصل أو غيرها من أنواع المأكولات بالرغم من أنها كلها متوفرة فى

(١) ذكر فى الفصل ٦١ أن بانى قصر التيه هو منديس .

مصر . وبذلك يتضح لنا أن الناس يجب أن يتعلموا كيف يحرمون أنفسهم بعض المأكولات المفيدة ، لأنه إذا تعاطى الجميع كافة أصناف المأكولات فلن يفى صنف واحدٌ من المستهلكات بحاجتهم . ويدلى بعض الناس بأسباب غير التى ذكرنا فيزعمون أنه فى عهد الملوك الأقدمين كثيراً ما ثار الشعب وتآمر بحكامه ، فقسّم أحدُ الملوك — وكان فذ الذكاء — البلاد إلى أقاليم متعددة ، وأوحى إلى سكان كل إقليم على حدة أن يصيدوا حيواناً خاصاً ، أو يمتنعوا من تذوق مأكل بعينه ، حتى لا يستطيع المصريون أبداً أن يتحدوا معاً . فقد كانت كل فئة منهم تعظّم معبودها وتزدرى ما يقدسه الآخرون ، وتتبين أغراض هذا الملك من نتائجها ، ذلك أن كل الذين يعيشون فى أقاليم متجاورة على اختلاف شديد فيما بينهم ، وقد أحفظهم التعدى على ما ذكرنا من عاداتهم .

٩٠ — ويدلى البعض بسبب آخر لعبادة الحيوانات فيقولون إنه فى البدء لما أقلع الناس عن حياة التوحش ، وعاشوا فى جماعات ، كانوا يأكلون بعضهم بعضاً ، ويقتتلون ، وكانت الغلبة دائماً للأقوى على الأضعف ، ثم جمع الذين أعوزتهم القوة شملهم بدافع من مصلحتهم الخاصة ، واتخذوا لهم شعاراً هو أحد الحيوانات التى قدّست فيما بعد ، والتفت الفئة المستضعفة حول هذا الشعار وكوّنت كتلة يتعذر على المتطاولين امتهانها . ولما انتهج الآخرون أيضاً هذه الخطة نفسها ، انقسم الشعب إلى جماعات ، وأصاب الحيوانُ الذى كان سبب سلامة كل جماعة من هذه

الجماعات تقديساً إلهيًا لما أسداه إليها من جزيل النعم . ولذلك تصيد كل جماعة من الجماعات المختلفة فى مصر إلى يومنا هذا الحيوان الذى قُدِّس عندها منذ البدء . وبالجملة ، فالقول بأن المصريين أكثر الناس قاطبة استعداداً للاضطلاع بزمام أى عارفة ، وهم يعتقدون أن عرفان الصنيع لفاعليه ملاذ الحياة الأكبر، ذلك بأنه من الجليّ أن الناس كلهم سيحرصون خاصة على بذل الصنيعة لأكثر من يرون من الناس حفاظاً للمعروف .

ويبدو أن هذه هى الأسباب نفسها التى يخشع المصريون من أجلها لملوكهم ويتعبدون لهم كأنهم آلهة حقًا ، معتقدين أنه لولا العناية الإلهية ما أوتى الملوك السلطان على كل شىء . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأوا أن الذين يريدون الخير ويستطيعون تأديته لهم نصيب من الطبيعة الإلهية.

وبعد ، فإذا كنت قد أفضت فى الحديث عن الحيوانات المقدسة فى مصر ، فقد بحثت على أى حال بالتفصيل أعجب ما أثار دهشة الناس من الشعائر فى مصر .

٩١ — وإن من يطلع على شعائر المصريين الجنائزية يعجب أشد العجب لغرابة عاداتهم فيها . فعند ما يموت أحدهم يلطخ جميع معارفه وأصدقائه رؤوسهم بالطين ويطوّفون بالمدينة نادبين إلى أن توارى رفاته فى القبر ، ويمتنعون من الاستحمام وتعاطى النبيذ أو أى غذاء لذيذ ، ولا يلبسون أى رداء زاهى اللون . وهناك ثلاث مراتب للدفن — الأولى باهظة التكاليف ، والثانية متوسطة ، والثالثة متواضعة جداً . والمقول أن

تكاليف المرتبة الأولى طالنط من الفضة وتكاليف الثانية عشرون منًا وتكاليف الثالثة مبلغ زهيد جداً .

والآن فالذين يقومون على أمر الجثث — وهم صناع ورثوا مهارتهم عن جدودهم — يعرضون على أهل المتوفى قائمة بتكاليف كل مرتبة من مراتب الدفن ، ويسألونهم عن الطريقة التى يريدون أن يهيئوا الجثة عليها . وبعد أن يتفقوا على جميع التفاصيل ، ويتسلموا الجثة يعهدون بها إلى طائفة اختصت بهذا الأمر وفق التقاليد المرعية . فيضع من يقال له « الكاتب » الجثة أولاً على الأرض ، ويحدد على العطف الأيسر المقدار الواجب شجه ، وبعد ذلك يأخذ من يسمونه « الجرّاح » حجراً حبشياً ويشج اللحم طبقاً للأصول المرعية . ثم يولى الأدبار فى التو مسرعاً ، فيقتفى الحاضرون أثره ويقذفونه بالأحجار ويلعنونه كأنهم يلصقون الجرم به ، فقد كانوا يعتقدون أن اللعنة تحل بكل من يحمل بالقوة على جثة واحد من أفراد قومه إما بجرحها أو على العموم بإدخال أى عطب عليها .

أما الذين يسمونهم « المحنطين » فهم أهلٌ لكل تعظيم وتقدير ، ويختلطون بالكهنة، ويباح لهم بصفتهم مُطَهَّرين الدخول فى المعابد . وعند ما يجتمعون لتجهيز الجثة التى سبق شجها ، يدخل أحدهم يده فى الشج إلى الجوف ويخرج كل ما فيه ما عدا الكليتين والقلب بينما ينظف آخرُ الأحشاء واحدة فواحدة بغسلها بخمر البلح ومحلول التوابل . وبالجملة فكل الجسم يجهز أولاً بزيت الأرز وبعض المستحضرات الأخرى مدة تزيد

على ثلاثين يوماً ، ثم يجهز بالمر والقرفة وموادَّ من خاصتها أن تحفظ الجثة وقتاً طويلاً وتضفى عليها النضارة أيضاً . وعند ما يتم تجهيز الجثة يسلمونها إلى أهل المتوفى ، وقد أبقوا على كل عضوٍ من أعضاء الجسم حتى إن الأهداب والحواجب تظل كما كانت ولا تتغير هيئة الجسم مطلقاً ، بل يمكن التعرف على ملامح شكله ، ولذلك يحتفظ كثيرٌ من المصريين بجثث أجدادهم فى غرف فخمة ، فينظرون وجهاً لوجه إلى أسلافهم الذين قضوا نحبهم قبل أن يولدوا هم أنفسهم بأجيال عديدة ، وهكذا عندما يرون جرم كل منهم وتفصيل جسمه ، وقسمات وجهه يستشعرون إحساساً غريباً كما لو كانوا قد عاشوا مع الذين يتطلعون إليهم .

٩٢ — وعند ما تجهز الجثة للدفن يخطرُ أهل الميت القضاةَ وأقرباء المتوفى وأصدقاءه أيضاً بيوم الجناز ، ويعلنون للملأ أنه — وهنا يذكرون اسم المتوفى — على وشك عبور البحيرة ، ثم يجتمع اثنان وأربعون من القضاة ويأخذون مجلسهم فى بناء نصف دائرى فى الجانب البعيد من البحيرة ، ويُطْلَقَ فى الماء القارب « بارِسْ »[1] الذى أعده من قبل الذين يضطلعون بهذه الأمور ، ويكون القارب تحت إمرة الملاح الذى يسميه المصريون فى لغتهم خارون[2] . ولذلك يدّعى المصريون أن أورفيوس أبحر إلى مصر فى الزمن القديم ، وشاهد هذه السنّة فزور الأسطورة الدائرة حول العالم

(١) الكلمة مصرية قديمة بمعنى قارب أو زورق وقد دخلت فى اللغة اليونانية .

(٢) هذه هى التسمية اليونانية ، وقد أخذها الرومان ولم يكن «خارون» معروفاً لدى المصريين ، وإنما يقابله فى الأساطير المصرية « الرجل الذى ينظر إلى الوراء » .

السفلى ، ناقلاً بعضها مما شاهد ومختلقاً البعض الآخر من ذات نفسه . وسأتحدث عن هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد . وعلى أى حال ، فبعد أن يطلق القارب فى البحيرة ، ولكن قبل أن يوضع فوقها النعش الذى يضم رفات الميت ، يخوّل القانون لمن شاء حق اتهام المتوفى . فإذا تقدم أحدٌ بتهمة أثبت بها أن المتوفى كان يحيا حياة ضالة ، أصدر القضاة حكمهم علانية فيحرم الميت حق الدفن المتواضع عليه . وإذا ظهر أن المدعى اتهم المتوفى بغير وجه حق ، وقع المدعى تحت طائلة عقوبات كبيرة . وإذا لم يتقدم أحدٌ بتهمة ، أو إذا تقدم واحد بتهمة وثبت أنه متجنٍّ ، ينتهى أهل الميت من حدادهم ، ويؤبّنون الميت ، وهم على عكس اليونان ، لا يذكرون شيئاً عن مولد المتوفى ، معتقدين أن المصريين كلهم سواء فى شرف المحتد ، ولكنهم يذكرون تربيته وتعليمه منذ طفولته ، ويثنون على تقواه وعدله وضبط نفسه وسائر فضائله عند ما بلغ مبلغ الرجال . ثم يدعون آلهة العالم السفلى أن تحشره فى زمرة الأتقياء ، أما الجمهور فيهلل مؤمِّناً ويشيد بعظمة المتوفى بصفته واحداً من أولئك الذين سيخلدون إلى الأبد فى العالم السفلى فى صحبة الأتقياء .

والذين يملكون مرافق خاصة يضعون الجثة فى مكانها المعين ، أما الذين لا مرافق لهم فيبتنون سقيفة جديدة فى خاصة بيتهم ويضعون النعش فيها منتصباً مستنداً إلى أمتن حيطانها . أما الذين حرموا مراسم الدفن إما لأن تهماً قد ثبتت عليهم ، أو لأن أجسامهم كانت رهينة ديون لم يؤدوها ،

فيدفنون فى خواص بيوتهم . ويحدث أحياناً أن يُصيبَ أحفادهم ثروة ، فيوفون بالتزامات موتاهم ، ويبرؤونهم من التهم المحمولة عليهم ، ويقيمون لهم جنازة فخمة .

٩٣ — وأقدس الواجبات المرعية عند المصريين أن يُرُوا وقد أولوا آباءهم وأجدادهم من التقديس بعد انتقالهم إلى منازلهم الأبدية أكثر مما كانوا يولونهم وهم فى قيد الحياة . ومن عاداتهم أن يقدِّموا جثث آبائهم الراحلين رهناً لدين ، ويلاحق العار الأكبر الذين لا يوفون هذا الدين ، فيحرمون مراسم الدفن بعد موتهم .

ولنا أن نعجب بحق بالذين سنوا هذه التقاليد ، ذلك بأنهم اجتهدوا أن يُشربوا الناس البر ونبل الأخلاق لا عن طريق صلات الأحياء فحسب ، بل ، و بقدر ما وسعت طاقتهم ، عن طريق دفن الموتى وتجهيزهم . فاليونانيون قد لجأوا إلى الخرافات الموضوعة والقصص المجرحة لتدعيم الاعتقاد بأن التقى سيلاقى ثوابه ، والشقى عقابه . ومهما يكن من شىء ، فإن هذه الأساطير لم يكن لها من القوة ما يمكنها من صرف الناس إلى الحياة الفاضلة ، بل بالعكس كانت موضوع سخرية الأشرار ، وقوبلت بالزراية التامة . بينما المسألة عند المصريين لا تدخل فى باب الخرافة ، بل هى حقيقة سافرة أن الشقى يلاقى عقابه ، والتقى ثوابه ، وكلاهما يذكَّر يوميًّا بواجباته . وهكذا نحصل على أحسن وأفيد تقويم للأخلاق . وعندى أن أحسن القوانين ليست التى يصبح الناس بفضلها أغنياء جداً ، بل هى

القوانين التى يصبحون بفضلها أنبل الناس أخلاقاً وأكثر المواطنين ولاء .

٩٤ — وينبغى أن نتحدث كذلك عن المشرعين المصريين الذين سنوا هذه التقاليد المبتكرة الغريبة . فيحكى أنه بعد أن توطدت الحياة فى مصر فى العصر القديم ، وقد استقرت فى رواية البعض فى عصر الآلهة والأبطال ، كان منيفيس[١] أول من أقنع الشعب بالامتثال لقوانين مكتوبة ، وقد كان فى ذاته رجلاً عظيماً ، وفى حياته أكثر من نشيد بذكرهم أريحية ، فادعى أن هرمس أوحى إليه بهذه القوانين لتكون مصدر نِعَم عظيمةٍ ، تماماً كما كان الأمر عند اليونان فيما يقال ، إذ ادعّى مينوس فى أقريطش وليكرجوس[٢] بين الأسبرطيين أنهما قد تلقيا قوانينهم ، أولهما تلقاها من زيوس ، وثانيهما من أبوللو . ويؤثر أن هذا الضرب من الحيلة قد جاز على شعوب كثيرة غيرها وكان مصدر أنعم كثيرة للذين آمنوا . ويحكى أن زاثراوستيس[٣] ادعى بين الآريين أن الروح الخيِّرة حبته بالقوانين ، وكذلك عزاها زالموكسيس Zalmoxis عند الأقوام المسماة بالجتيين[٤] Getae إلى إلاهتهم المشتركة هيستيا Hestia ، وعند اليهود عزاها موسى إلى الإله الذى يدعونه إياو ، وهؤلاء ، إما أنهم قدَّروا أن الفكرة التى يكون من

---

(١) هو فيما يظهر مينا الذى ورد ذكره في الفصل ٤٣ و ٤٥ .

(٢) هو مشرع إسبرطة الأكبر ، وقد أعاد بتشريعاته توزيع الثروة فى إسبرطة ووضع لها نظامها الحربى والمدنى ، والمرجح أن ذلك كان حوالى سنة ٨٢٥ ق . م .

(٣) زرادشت . (٤) يسكنون جنوب نهر الطونة ، وظهر بينهم زالموكسيس وبشرهم بخلود الروح .

شأنها أن تفيد جمهرة الناس ، فكرةٌ رائعة وإلاهية تماماً ، وإما أنهم رأوا أن الشعب يكون أكثر خضوعاً للقوانين لو اتجه ببصره صوب عظمة وقوة الذين يُعزى إليهم وضع هذه القوانين . ويقول المصريون إن ثانى المشرعين هو ساسوخيس Sasychis [١] وهو رجل يمتاز برجاحة العقل ، وقد أضاف إلى القوانين القائمة قوانين جديدة ، ونظّم شعائر الآلهة بحرص فائق ، ووضع علم الهندسة ، وعلّم أهل البلاد مراقبة النجوم ورصدها . وثالث مشرعيهم فيما يقولون سيسوسيس Sesoosis [٢] ولم يكتف بالقيام بأبهر الأعمال الحربية المصرية ، بل سنّ تشريع الطبقة المحاربة ، ووضع كل ما يتبع ذلك من أصول الحملات الحربية . ورابع المشرعين هو الملك بوخوريس [٣] وكان عاقلاً امتاز بدهائه ، فنظّم جمع شئون الملك وشرَع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة ، وقد كان حكيماً فى قضائه إلى حد أن كثيراً من أحكامه ما زال لفرط سداده مأثوراً إلى يومنا هذا . ويضيفون إلى ذلك أنه كان أضعف الناس بِنْيَةً وأجشع الملوك قاطبة نفساً .

٩٥ — وبعد بوخوريس صرف الملك أمازيس همّته فيما يقال إلى القانون . فهو الذى نظّم فيما يزعمون أصول حكومة الأقاليم ، وقواعد الإدارة المصرية عامة . والمأثور أنه كان بالغ الحكمة رحيم الطبع عادلاً . وقد اجتباه المصريون للملك من أجل هذه الصفات بالرغم أنه لم ينحدر من

(١) يرى البعض أنه الفرعون شيب — سيس — كاف من الأسرة الرابعة .
(٢) راجع الفصل ٥٣ وما بعده .
(٣) مذكور في الفصل ٤٥ ، ٦٥ ، ٧٩ .

أصل ملكى . ويحكى أن الإليائيين وكانوا شديدى الاهتمام بالمباريات الأولمبية ، أرسلوا إليه وفداً يسأله كيف يمكن أن تكون المباريات على غاية من النزاهة ؟ فأجاب « إذا لم يشترك فى المباريات أحد من الإليائيين [١] » . وبالرغم من أن بوليقراطيس Polycrates [٢] طاغية ساموس كان قد عقد معه معاهدة صداقة ، إلا أنه حينما أخذ يسوم المواطنين والأجانب الذين نزلوا بساموس العسْفَ ، أرسل إليه أمازيس أولاً فيما يقال وفداً يدعوه إلى الترفق ، ولما لم يعره بوليقراطيس التفاتاً ، كتب إليه رسالة يقطع فيها ما بينهما من صلات الصداقة والمودة ، ذلك أنه لم يُردْ لنفسه السوء وشيكاً . فقد كان يعلم علم اليقين أن المصيبة لا تلبث أن تحيق بمن يقيم مثل هذا الحكم الاستبدادى . ويقال إنه نال إعجاب اليونان لنبله ولأن ما أنذر به بوليقراطيس تحقق عاجلاً ، ويقال إن دارا أبا إجزركسيس كان سادس من تفقهوا فى القوانين المصرية ، فقد أسخطه ما استهدفت له المعابد المصرية على يد سلفه الملك قمبيز من عبث ، وكان شديد الرغبة فى أن يحيا حياة فاضلة تقية ، فصحب الكهنة المصريين أنفسهم ، وأخذ عنهم علم الكلام والتاريخ المثبت فى الكتب المقدسة . ولما تعلم منها سمو نفس الملوك القدماء ، وبرَّهم برعيتهم ، احتذى حذوهم ، وهكذا أصاب من التكريم قدراً عظيماً إلى حد أنه الوحيد بين الملوك جميعاً الذى أطلق عليه المصريون

(١) ذكر هيرودوت ٢ ، ١٦٠ هذه القصة بالتفصيل ولكنه عزاها إلى الملك بساميس.
(٢) من أشد طغاة اليونان بطشاً ، وكان من رعاة الأدب والعلم ، وقتل غيلة سنة ٥٢٢ ق . م .

لقب إله وهو فى قيد الحياة . ولما قضى نحبه ، كان نصيبه من التكريم مثل نصيب الملوك الأقدمين الذين حكموا طبقاً لنصوص القانون .

هؤلاء الرجال إذن اشتركوا فيما يقال فى وضع التشريع العام الذى اكتسب صيتاً ذائعاً بين سائر الشعوب . ويقال إن كثيراً من هذه القوانين التى كانت صالحة فى رأى الكافة قد تغيّرت عندما انتصر المقدونيون وقضوا على الحكومة الملكية الوطنية إلى الأبد .

٩٦ — والآن ، بعد أن فصلنا هذه المسائل ، يجب أن نتحدث عن أولئك اليونانيين الذين زاروا مصر فى العصور القديمة ليدرسوا ما فيها من نظم وعلوم . يقول الكهنة المصريون — معتمدين فى ذلك على ما ورد فى الكتب المقدسة — إن أورفيوس[١] وموسى وميلامبوس Melampus[٢] وديدالوس[٣] والشاعر هوميروس وليكرجوس الإسبرطى وصولون الأثينى، والفيلسوف أفلاطون زاروا مصر فى العصر القديم . ويزعمون أن العالم الرياضى يودكسوس Eudoxus[٤] وديموقريطس[٥] الأبدرى وأينو بيديس[٦] Oenopides الخيوى قد جاءوا إليها أيضاً والأدلة التى يسوقونها على صحة هذه الدعاوى كلها هى التماثيل التى أقيمت لبعض هؤلاء اليونانيين ، والبقاع

(١) شخصية خرافية ، كان اليونانيون يعتقدون أنه أشهر الشعراء قبل هوميروس .
(٢) كان اليونانيون يعتقدون أنه أول من أدخل عبادة ديونيسوس عندهم .
(٣) شخصية خرافية، اعتقد اليونانيون أنه أدخل فنون النحت والعمارة فى أثينا وكريت.
(٤) جغرافى ورياضى من تلاميذ أفلاطون ، والشواهد كثيرة على زيارته لمصر .
(٥) راجع فصل ٣٩ . (٦) راجع فصل ٤١ .

والمنشآت التى سميت بأسماء البعض الآخر[١] ، والعلوم التى صرف كلٌّ منهم إليها همته ، زاعمين أن كل ما نالوا الإعجاب من أجله عند اليونانيين كان منقولاً من مصر . ويقولون إن أورفيوس نقل من مصر أكثر الطقوس الباطنية والشعائر السرية المتعلقة بسياحته ، وأساطير العالم السفلى ، ذلك بأن شعائر أوزيريس هى بعينها شعائر ديونيسوس ، كما أن شعائر إيزيس قريبة الشبه جداً بشعائر ديميتير مع اختلاف فى الأسماء وحدها ، فعقاب الأشرار فى العالم السفلى ، وجنات الأتقياء وما ينسجه الخيال من ترهات يؤمن بها الكثيرون ، مستقاة من الشعائر الجنائزية فى مصر ، ذلك أن رائد الأرواح هرمس يسوق — طبقاً للطقوس المصرية القديمة — جسم إيبس إلى مكان ما ويسلمه للذى يلبس قناع كربيروس Cerberus وثبّت أورفيوس هذا التقليد بين اليونانيين وتابعه هوميروس وقال فى شعره :

« وابتعث هرمس الكلّينى أرواح الخطّاب وقد قبض بيديه على عصاه السحرية » ثم عاد بعد أبيات قليلة فقال[٢] :

« قد عبروا أمواه المحيط وصخره الضوء اللماع »
« جاوزوا أبواب الشمس ومنطقة الأحلام »
« وها قد بلغوا بغتة رياض الشقائق »

(١) جاء فى إسترابون ١٧ ، ١ أن البيت الذى نزل فيه أفلاطون ويودكسوس كان قائماً فى هيلوبوليس . (٢) الأوديسية ٢٤ ، ١ — ٢ و ١١ — ١٤ .

« حيث تسكن الأرواح وأشباح الموتى »

وهكذا يسمى الشاعر النهر ، « المحيط » (١) لأن المصريين يطلقون على النيل هذا الاسم فى لغتهم ، أما أبواب الشمس (هليوس) فهى أبواب مدينة هليوبوليس . والرياض — مساكن الموتى الخرافية — هى المروج القريبة من البحيرة التى يقال لها أخيروسيا بالقرب من منف ، وتكتنفها المروج البالغة الجمال والمستنقعات ونبات البردى والغاب . ومن هنا قيل إن مساكن الراحلين تقع فى هذه البقاع لأن أكثر مدافن المصريين وأعظمها قائم هناك ، فينقل الموتى عَبْرَ النهر وبحيرة أخيروسيا وتلحد جثثهم هناك حيث توجد مقابرها .

وتتفق أساطير اليونان الأخرى حول العالم السفلىّ مع التقاليد التى لا تزال قائمة فى مصر ، ذلك بأن السفينة التى تحمل جثث الموتى تسمى بارِس ، ويُنقدُ الجعل للسفّان الذى يدعى فى لغة أهل البلاد خارون ، ويقولون إنه يقع بالقرب من هذه المنطقة معبد هيكاتس إلهة الظلام ومنافذ كوكيتوس (٢) ، وليتى (٣) وتتخللها قضبان من البرنز . وهناك أيضاً بوابات أخرى « للحق » ، وبالقرب منها يقوم تمثال بلا رأس « للعدالة » .

٩٧ — ولا يزال كثيرٌ غير هذه من الخرافات سائداً فى مصر ، وما انفكت الأسماء فيها باقية ، والطقوس لا تزال معمولاً بها . ففى مدينة أكانثوس ، فيما وراء النهر فى الناحية اللوبية ، وتبعد مائة وعشرين ستاداً

(١) الواقع أن هوميروس لا يعرف النيل إلا باسم إيجبتوس .

(٢) نهر الأحزان المتصل بالعالم السفلى . (٣) نهر النسيان المتصل بالعالم السفلى .

عن منف ، توجد جرة مثقوبة يحمل إليها الماء من النيل كل يوم ثلثمائة وستين كاهناً (١) ، وبالقرب من هذه الناحية نرى خرافة أكنوس (٢) لا تزال تقام بالتمام فى أحد الأعياد حيث يضفر أحدهم حبلاً طويلاً بينما يحل كثيرون من ورائه ما ضفر ، ويقولون إن ميلامپوس نقل من مصر الطقوس التى تواضع اليونان على إقامتها لديونيسوس ، والخرافات الدائرة حول كرونوس ، وقصص الحروب ضد المردة ، وبالجملة حكاية كل ماعاناه الآلهة . ويدعى المصريون أن ديدالوس قلد دروب التيه المصرى الذى لا يزال باقياً إلى وقتنا الحاضر ، وقد ابتناه على قول البعض منديس وعلى قول آخرين ماروس (٣) ، وقد تولى الحكم قبل الملك مينوس Minos بسنين عديدة . ونِسَبُ التماثيل المصرية القديمة هى نفس نسب التماثيل التى أقامها ديدالوس عند اليونانيين ، ويقال إن البوابة الخارجية فى معبد هيفايستوس فى منف ، وهى جميلة جداً ، أنشأها ديدالوس ، وأعجب به المصريون وأقاموا له تمثالاً خشبياً فى المعبد المذكور كان من صنع يديه هو نفسه . وأخيراً فقد أكسبته عبقريته شهرة عظيمة ، وبعد أن قام باكتشافات كثيرة حظى بالتقديس الإلهى . ويوجد إلى الآن معبد لديدالوس فى إحدى الجزائر بالقرب من منف ويقدسه فيها الشعب .

(١) إشارة إلى بنات دناؤس الخمسين اللائى كتب عليهن بعد الموت أن يملأن جرات لا قعر لها . (٢) فى الأساطير اليونانية أن أكنوس فى العالم السفلى كتب عليه أن يضفر حبلا ووراءه حمار يأكل ما يضفر (٣) راجع فصل ٦١ .

ويُقدِّم المصريون أدلةً كثيرة على زيارة هوميروس لمصر وأخصها الدواء الذى أعطته هيلينة لتيليماخوس فى بيت مينيلاوس، وما جلب له من نسيان الشرور التى أصابته، وهذا هو دواء النيبنثيس (١) Nepenthes الذى يقول الشاعر أن هيلينة قد أخذته من بوليدامنه زوج ثون فى مدينة طيبة المصرية، ومن الجلىِّ أنه فحصه جيداً. وهم يدَّعون أن النساء فى تلك المدينة يستعملون إلى الآن هذا الدواء الناجع، ويقولون إنه اكتُشِفَ منذ الزمن القديم دواء لشفاء الغيظ والألم بين نساء ديوسبوليس وحدهن. ومدينة ديوسبوليس هى نفسها مدينة طيبة. وهكذا ينعت الأهالى أفروديت بلقب « الذهبية » فى الأساطير القديمة، ويوجد حول المدينة التى يسمونها مومفيس سهل يقال له « أفروديت الذهبية » ويقال إن هوميروس نقل من مصر أسطورة معاشرة زيوس لهيرا ورحلته إلى الحبشة، وفى كل عام ينقل المصريون مقصورة زيوس عبر النهر إلى لوبيا، وبعد بضعة أيام يرجعونها بالتالى كما لو أن الإله قد قفل راجعاً من الحبشة. أما عن معاشرة هذين الإلهين فإن مقصورتيهما تنقلان فى الأعياد إلى تل قد فرشه الكهنة بجميع أنواع الزهور (٢).

---

(١) معناها مسكن الآلام. والإشارة إلى قول هوميروس فى الأوديسية ٤، ٢٢٠ « ومن ثم سكبت فى الخمر الذى كانوا يشربون منه دواء مسكناً للآلام، ومنسياً لجميع الأحزان ».

(٢) يشير ديودور إلى قول هوميروس فى الإلياذة ٢، ٣٤٦ — ٨ « أما ابن كرونوس فضم خليلته بين ذراعيه، وأخرجت الأرض الطيبة تحت أقدامهما حشائش ناضرة غضة وبشنين ندياً، وزعفران وعيسلان، رخصاً سميكا ».

٩٨ — ولقد اقتبس ليكرجوس وأفلاطون وصولون كثيراً من السنن المصرية فى شرائعهم. وتعلم فيثاغوراس من المصريين علم الكلام ونظريات المساحة والحساب، وحلول الروح فى أنواع الحيوانات المختلفة. ويعتقد المصريون أن ديموقريطس قضى بينهم خمس سنوات تعلم فيها كثيراً من مسائل علم الهيئة، وتعلم أونوبيديس فيما تعلم بملازمة الكهنة وعلماء الهيئة أن الشمس تدور فى شكل إهليلجى فى اتجاه مضاد لسائر الكواكب. وكذلك بعد أن درس يودكسوس عند المصريين علم الفلك نقل كثيراً من العلوم المفيدة إلى اليونانيين وأصاب عندهم شهرة عظيمة.

ولقد زار مصر أشهر المثالين القدماء تليكليس وثيودوروس ولدا رويكوس اللذان نحتا لأهل ساموس التمثال الخشبى لأبوللو البيثينى. وشاع القول بأن تليكليس أنجز نصف التمثال فى سامُوس، فى حين أنجز أخوه ثيودوروس النصف الثانى فى إفسوس ولما وُضع النصفان بجانب بعضهما التأما إلى حدّ أنه كان يبدو كأنّ الأثر الفنى كله كان من صنع رَجُلٍ واحد. وهذا الأسلوب فى الصناعة لم يصطنعه اليونان أبداً. فى حين أن المصريين عاكفون عليه على وجه التخصيص. ذلك أن المصريين لا يحكمون على تناسب التمثال بما يقع تحت أعينهم من منظور كما هو الحال عند اليونانيين، بل إنهم بعد أن يصففوا الحجر، ويقسموه، ويبدأوا العمل فيه، حينئذ يأخذون النسب والأبعاد صغيرها وكبيرها على حدٍ سواء. وهم يقسمون هيكل

الجسم كله إلى واحدٍ وعشرين قسماً وربع قسم، وبذلك يعطون كل نسب المنظور . وهكذا عند ما يتفق الصناع فيما بينهم على حجم الأثر الفنى ، يعملون كلٌ على حدةٍ . ويهيئون حجم التمثال بانسجام دقيق إلى حد أن تفرُّد أسلوب صناعاتهم كان مثار عجب عظيم ، وهكذا نُحِتَ تمثال ساموس طبقاً لأصول الصناعة المصرية ، فقد شطر التمثال نصفين من قمة الرأس إلى العورة ، وهذان النصفان متماثلان من جميع الوجوه . ويقال إن هذا التمثال يشبه فى معظم الوجوه التماثيل المصرية وقد امتدت يداه وانفرجت رجلاه .

هذه إذن عجالةٌ كافية فى تاريخ مصر وما هو جدير بالذكر فيها ، وسنتبعها طبقاً للخطة التى وضعناها فى مستهل الكتاب بما تلا ذلك من حوادث وأخبار ، مبتدئين بما حدث للآشوريين فى آسيا .

لحق ١

المقاييس

القدم		= ٠,٣٠٨٨ من المترأو ١٢,١٦ من البوصة
ذراع(١)	= ١½ قدم	= ٠,٤٦٣٢ من المتر
باع	= ٦ أقدام	= ١,٨٥٣ متراً
بليثرون	= ١٠٠ قدم	= ٣٠,٨٨ متراً
ستاد	= ٦٠٠ قدم	= ١٨٥,٣ متراً
سخينوس	= ٦٠ ستاد	= ١١,١٢ كيلومتراً
رحلة يوم براً	= ١٥٠ ستاد	= ٢٨ كيلومتر تقريباً
رحلة يوم بحراً	= ٧٠٠ ستاد	= ١٣٠ » »
رحلة ليلة بحراً	= ٦٠٠ ستاد(٢)	= ١١١ » »

النقد

المن	= ١٠٠ دراخمة	
طالنط	= ٦٠ مناً	= ٢٤٠ جنيهاً تقريباً

وهـذه كانت تستعمل بهذه النسب كموازين ، والمن (وزن) = ١½ رطلا . وكان مستعملا كمكيال .

(١) الذراع المصرية تساوى ٠,٥٢٥ من المتر وهى تساوى بالنسبة إلى الذراع الأوليمبية ١٧ إلى ١٥ وهذه هى الذراع التى كان المصريون يستعملونها فى مساحة الأرض وقياس ارتفاع النيل .

(٢) وهذا يساوى خمس عقد بحرية تقريباً . والستاد فى البحر يساوى ½ دقيقة عرض أو ٦/١٠٠ من درجة العرض .

ملحق ٢

أسماء المدن

المدن المصرية التى وردت فى الكتاب	اسم الموقع الآن
أرسنوى ٣٣[(١)]	
أكانثوس ٩٦	الإسكندرية
الإسكندرية ٥٠	واحة سيوه
انطايوس ٢١	قرية بالقرب من العطاطنية
إلفنتين ٨	جزيرة الفنتين
بابيلون ٥٦	مصر القديمة
برايتونيوم ٣١	مرسى مطروح
بوباسطيس ٢٧	تل بسطة
بوسيريس ٨٥	أبو صيربانا
بيلوزيوم ٥٧	تل الفرما
ثونيس ١٩	؟
خمو ١٨	أخميم
ديوسبوليس ١٥ ، ٩٧	الأقصر
رينوكولورا ٦٠	العريش
سايس ٢٨	صالحجر
طروبا ٥٦	طره
طيبة ١٥ ، ٢٣ ، ٤٥ — ٥٠ ، ٩٧	الأقصر

(١) الرقم يشير إلى الفصل

المدن المصرية التى وردت فى الكتاب	اسم الموقع الآن
فيلاى ٢٢	جزيرة فيلاى (بيلاق)
كروكوديلوبوليس ٨٩	مدينة الفيوم
ليونتوبوليس ٨٤	كوم المقدام
ماريه ٦٨	على الشاطىء الجنوبى من بحيرة مريوط (أطلال)
منفيس ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٩٧	ميت رهينه
مومنفيس ٦٦ ، ٩٧	أبو بيلو
منديس ٨٤	تل الربع
نيلوبوليس ٨٥	دلاص
هليوبوليس ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٤ ، ٨٤	المطرية

لحق ٣

أسماء الآلهة

أسماء الآلهة الواردة فى الكتاب		ما يقابلها فى المصرية القديمة
آپوللو	١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٩٨	حورس (فى ادفو)
آثينا	١٢ ، ١٦	شو أو تفنت
أفروديق	١٣ ، ١٧ ، ٩٧	هاتور
أنوبيس	٨ ، ٨٧	أنوبيس
أوزيريس	١١ ، ١٤-٢٧ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨	أوزيريس
إيزيس	١١-١٧ ، ٢٢-٢٧ ، ٤٤ ، ٨٧ ، ٨٨	إيزيس
أيليثويا	١٢	نخبت
پان	١٨	من
پرياپوس	٨٨	من
بلوتو	٢٥	أوزيريس
جى ميتير (الأرض)	١٢	جب
حورس	٢١ ، ٢٥ ، ٤٤	حورس
ديميتير	١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٩ ، ٩٦	إيزيس
ديونيسوس	١١ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٩٦	أوزيريس
ريا	١٣	؟
زيوس	١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٩٧	آمون — رع
سيرابيس	٢٥	سيرابيس
سيلينى (القمر)		إيزيس
طيفون	١٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٨٨	ست

أسماء الآلهة الواردة فى الكتاب		ما يقابلها فى المصرية القديمة
كرونوس	١٣ ، ٢٧	جب
مقيدون	١٨ ، ٢٠	أبوات
هرقل	٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤	خنسو
هرمس	١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ٤٣ ، ٩٤ ، ٩٦	تحوت
هليوس (الشمس)	١٣	رع
هيرا	١٣ ، ٩٧	إيزيس
هيفايستوس	١٢ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٥٣ ، ٥٧	آتوم — رع (فى هليوپوليس) بتاح (فى منفيس)

فهرس

أبريس ٦٨
أبواب الشمس ٩٦
أبوللو ١٣، ١٧، ١٨، ٣٥، ٩٨
أبوللودوروس ٥
أبيس ٢١ ، ٨٤ ، ٨٥
أثيرتيس ٥٣
أتيكا ٢٠
آثينا ٢٨
أثينه (الإلهة) ١٢ ، ١٦
أجاثارخيديس ٤١
أجزركسيس ٥٨
أجيريوم ٤
أحمس ٦٨
أخوريوس ٥٠
أخيروسيا ٩٦
أخيلؤس (نهر) ٣٩
أرجوس ٢٤ ، ٢٨
إرخثيوس ٢٩
أرخميديس ٣٤
أرسنوى ٣٣
أرمايوس ٦٤
اريوباجوس ٧٥
آريون ٩٤
استابوس (نهر) ٣٧
إسبرطه ٥
آستى ٢٨
أفروديت ١٣ ، ١٧ ، ٩٧
أفلاطون ٩٦ ، ٩٨
أكتيزانيس ٦٠
أكنوس ٩٧
الإسكندر الأكبر ٣، ٤، ٢٦، ٥٠، ٥٥، ٨٤
الإسكندرية ٥٠
البحر الأحمر ٣٣ ، ٥٥
الغال ٤
الكايوس ٢٤
ألكمينى ٢٤
اليمن ١٥
إليوسيس ٢٩
مازيس ٥٩، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٩٥
أموزيس ٦٤

آمون ١٣ ، ١٥ ، ٤٦
إناروس ٦٤
أناكساجوراس ٧ ، ٣٨ ، ٣٩
أنطايوس (مارد) ٢١
أنطايوس (حاكم) ١٧
أنوبيس ١٨ ، ٨٧
أورفيوس ١١، ١٢، ٢٣، ٦٩، ٩٢، ٩٦
أوزيريس ١١ ، ١٤ — ٢٧ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨
أوزيماندياس ٤٧ ، ٤٩
اوقيانى ١٢ ، ١٩
أوقيانوس ١٢ ، ٩٦
أوينوبيديس ٤١ ، ٩٦ ، ٩٨
إياو ٩٤
أيتوس (النسر) ١٩
إيجبتوس (النيل) ١٩
إيجبتوس (ملك) ٥١
إيستر (نهر) ٨٩
إيزيس ١١ — ١٧، ٢٢ — ٢٧، ٤٤، ٨٧، ٨٨
أيليثويا ١٢
إيو ٢٤
أيونيه ٦٦
بابيلون (فى مصر) ٥٦
بابيلون (بابل) ٢٨ ، ٨١
باراثرا ٣٠
بان ١٨ ، ٨٨
باكتريون ٤٧
برايتوريوم ٣١
برسيبوليس ٤٦
برسيوس ٢٤
برقه ٦٨
بروتيوس ٦٢
بروميثيوس ١٩
بريابوس ٨٨
بسماتيك ٣٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
بطليموس (قناه) ٣٣
بطليموس (١١) ٤٤
بطليموس (١) ٣١ ، ٤٦ ، ٨٤
بطليموس (٢) ٣٣ ، ٣٧
بلاد العرب ١٩ ، ٥٣
بلوتو ٢٥
بوباسطيس ٢٧

بوزيدون ٢٨
بوسيريس (مدنية) ٨٥
بوسيريس (حاكم) ١٧
بوسيريس (ملك) ٤٥ ، ٦٧ ، ٨٨
بولجيون ٣٧
بوليقراطيس ٩٥
بوليدامنه ٩٧
بوكخوريس ٤٥، ٦٥، ٧٩، ٩٤
بيتيس ٢٨
بيلوزيوم ٥٧
بيلوس ٢٨

تروجوديتيس ٣٠ ، ٣٧
تريبتوليموس ١٨
تلكليس ٩٨
تليماخوس ٩٧
تمساح ٣٥
تنايس (الدون) ٥٥
تنيفاخثوس ٤٥

ثونيس ١٩
ثوكيديديس ٣٧
ثيوبومبوس ٣٧

نيودوروس ٩٨

جلوكوبيس ١٢

حبشة ١٩، ٣٣، ٣٤، ٣٨، ٥٥
حرب طرواده ٤ ، ٥ ، ٢٤
حورس ٢١ ، ٢٥ ، ٤٤

خارون ٩٢ ، ٩٦
خفرع ٦٤
خميس ٦٣
خمو ١٨

دارا ٣٠ ، ٥٨ ، ٩٥
دلتا ٣٤
دناؤس ٢٨
ديدالوس ٦١ ، ٩٦ ، ٩٧
ديموقريطس ٣٩ ، ٩٦ ، ٩٨
ديميتير ١٢، ١٣، ١٤، ٢٩، ٩٦
ديوكاليون ١٠
ديونيسوس ١١، ١٥، ٢٢، ٢٣، ٢٧، ٩٦

رمسيس (٢) ٤٧ ، ٤٩

رمسيس (٣) ٦٢ ، ٦٣
رمفيس ٦٢ ، ٦٣
رودوبيس ٦٤
روما ٤
رويكوس ٦٨
ريا ١٣
رينوكولورا ٦٠

زالموكسيس ٩٤
زرادشت ٩٤
زيثوس ٣٣
زيوس ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٩٧

ساتير ١٨ ، ٨٨
ساسيخيس ٩٤
ساموس ٩٥
سايس ٢٨
سباكو ٦٥
سربونيس ٣٠
سميراميس ٥٦
سميلى ٢٣
سوسا ٤٦
سيرابيس ٢٥
سيريوس (أوزيريس) ١١
سيريوس (الشعرى اليمانية) ١٩
سيسوسيس ٥٣ — ٥٩ ، ٩٤
سيكلاديس ٣٦ ، ٥٥

صولون ٦٩، ٧٧، ٧٩، ٩٦، ٩٨

طاليس ٣٨
طرواده ٥٦ ، ٦٢
طيبة (إقليم) ١٠ ، ١٥ ، ١٨
طيبة (مدينة) ١٥ ، ٢٣ ، ٤٥ ، ٧٥
طيفون ١٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٨٨

فاروس ٣١
فلسطين ٣٠ ، ٣١
فيثاغوراس ٦٩ ، ٩٦ ، ٩٨
فيلاى ٢٢
فيليب ٣

قادموس (مصرى) ٢٣
قادموس (يونانى) ٣٧
قارية ٦٦
قمبيز ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٩٥

قورينه ٦٨
قوازق ٤١
قيصر (يوليوس) ٤

كتيزياس ٥٦
كروكوديلوپوليس ٨٩
كرونوس ١٣ ، ٢٧
كربروس ٩٦
كلدانيون ٢٧ ، ٨١
كولخيون ٢٨ ، ٥٥
كوكيتس ٥٦
كيتيس ٦٢
كيروكيس ٢٩
كيفيسوس ٣٩
كيكروبس ٢٨
كيكى ٣٣

ليبيا (الصحراء) ٣٧ ، ٥٣
ليبيا ٢٨
ليثى ٩٦
ليكرجوس (ملك) ٢٠
ليكرجوس (مشرع) ٩٤، ٩٦، ٩٨
ليونتوپوليس ٨٤

ماتريس ٢٤
مارد ٢٥ ، ٩٧
ماروس ٦١ ، ٩٧
مارون ١٨ ، ٢٠
ماريه ٦٨
مروى (مدينه) ٣٣
مروى (جزيرة) ٣٣ ، ٣٧
مروى (أم قمبيز) ٣٣
مقياس النيل ٣٦
مقيدون ١٨ ، ٢٠
منديس (مدينة) ٨٤
منديس (ملك) ٦١ ، ٩٧
منقرع ٦٤
منيفس ٩٤
منيفيس ٢١ ، ٨٤ ، ٨٥

ممفيس ٢٢ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٦٧ ،
٧٥ ، ٨٤ ، ٩٧
موسى ٩٤ ، ٩٦
مومفيس ٦٦ ، ٩٧
موريس (ملك) ٥١ ، ٥٢
موريس (قارون) ٥١ — ٥٢ ،
٦٦ ، ٨٤ ، ٨٥

مياندر ٣٩
مينا ٤٣ ، ٤٥ ، ٨٩
مينشيوس ٢٨
مينلاوس ٥٦
ميلامبوس ٩٦ ، ٩٧
مينوس ٦١ ، ٩٤
مينوطور ٦١

نخاو ٢٣
نسامونيون ٣٧
نمس ٣٥
نيسا (فى اليمن) ١٥ ، ٢٧
نيسا (فى الهند) ١٩
نيسايوس ٢٧
نيل ١٩ ، ٣٢—٤٢
نيلوپوليس ٨٥
نيليوس ٦٣

هاديس ٢ ، ٩٢
هرقل ٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤
هرمس ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ٤٣ ،
٩٤ ، ٩٦
هستيا ١٣ ، ٩٤

هليوپوليس ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٥ ، ٩٦
هليوس (ملك) ١٣ ، ٢٦
هند ١٩ ، ٤١
هوميروس ١ ، ١١ ، ١٢ ، ١٩ ،
٤٥ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ٩٧
هيداستيس ٤١
هيرا ١٣ ، ٩٧
هيرودوت ٣٧ ، ٣٨ ، ٦٩
هيروديس ٤
هيفايستوس ١٢ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٥٣ ، ٥٧
هيكاتيس ٩٦
هيكاتيوس ٤٦
هيلانيكوس ٣٧
هيلينه ٩٧

يافا ٣١
يهود ٥٥ ، ٩٤
يوباتريداى ٢٨
يودكسوس ٩٦ ، ٩٨
يوريبيديس ٧ ، ٣٨ ، ٣٩
يومولبوس ١١
يومولبيداى ٢٩

المشتمل

مقدمة
١ (١) فاتحة الكتاب
٢ — ٤ فائدة علم التاريخ
٥ منهج التقويم عند ديودور
٦ — ٩ الإنسان الأول والحياة البدائية
١٠ تاريخ مصر
١١ إيزيس وأوزيريس
١٢ — ١٣ الآلهة فى مصر وأنسابها
١٤ — ٢٧ إيزيس وأوزوريس
٢٨ الجاليات المصرية
٢٩ إرخثيوس
٣٠ — ٣١ وصف مصر
٣٢ — ٣٧ وصف النيل
٣٨ — ٤١ أسباب الفيضان
٤٢ مختصر الجزءين الأول والثانى
٤٣ الحياة فى مصر القديمة
٤٤ — ٤٥ طبقات الملوك المصريين
٤٦ طيبة
٤٧ — ٤٩ أوزيماندياس
٥٠ — ٥٢ أوخوريس

(١) الرقم يشير إلى الفصل

٥٣ — ٥٩ سيسوسيس
٦٠ أمازيس
٦٢ كيتيس
٦٣ نيلوس
٦٤ خفرع
٦٥ منقرع
٦٦ — ٦٧ بساتيك
٦٨ أبريس
٦٩ — ٧٤ النظم المصرية
٧٥ — ٨٠ القوانين المصرية
٨١ — ٨٢ العلوم المصرية
٨٣ — ٩٣ الحيوانات المقدسة فى مصر
٩٤ — ٩٥ المشرعون المصريون
٩٦ — ٩٨ أثر الحضارة المصرية فى اليونان .

ص
١٧١ ملحق ١ المقاييس
١٧٢ « ٢ أسماء المدن
١٧٤ « ٣ أسماء الآلهة
١٧٦ فهرس

